بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

رسالة بعنوان

الغارة في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي
دراسة في الشكل والمضمون

Invade in Al-su'a'lik poetry in pre-Islamic
A poetry study in form and content

إعداد الطالب

مراد محمد العمري

إشراف الأستاذة الدكتورة

أمل طاهر نصير

الفصل الدراسي الثاني

2014م

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الغارة في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي

دراسة في الشكل والمضمون

إعداد الطالب

مراد محمد العمري

بكالوريوس لغة عربية – جامعة آل البيت – 2009م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية – أدب ونقد – جامعة اليرموك إربد –

الأردن – 2014

وافق عليها

الأستاذة الدكتورة	أمل طاهر نصير	رئيساً ومشرفاً
	أستاذة دكتورة في الأدب القديم – جامعة اليرموك	
الأستاذ الدكتور	قاسم محمد المؤمني	عضواً
	أستاذ في النقد القديم – جامعة اليرموك	
الدكتور	أحمد محمد الحراحشة	عضواً
	أستاذ في الأدب الجاهلي – جامعة آل البيت	

تاريخ مناقشة الرسالة 15/5/2014م

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شكر وتقدير

يسرني وقد أنهيت رسالتي - بحمد الله وفضله - التوجه بخالص الشكر والعرفان لأستاذتي الفاضلة أ . د أمل طاهر نصير ، فلها الفضل في الإشراف على هذه الرسالة . فما خرجت هذه الرسالة على هذه الصورة إلا بفضل رأيها السديد وتوجيهها المستمر ومتابعتها الدقيقة .

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذين الفاضلين ، لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتور قاسم المومني والدكتور احمد الحراحشة ، لتفضلهما قبول قراءة هذه الدراسة ومناقشتها ، شاكرا لهم جهودهما ، ومصغيا لتوجيهاتهما ، وملاحظاتهما ، التي ستسهم بلاشك في تقويمها

الباحث

مراد العمري

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الإهداء

إلى والدي العزيز محط فخري واعتزازي .....

إلى والدتي الحبيبة عنوان أهلي وإشراقة شمسي .....

إلى زوجتي ورفيقة دربي التي تحملت معي عناء هذه الدراسة .....

إلى قرتي عيني وفلذتي كبدي هاشم وشيماء .....

إلى عمي وعمتي يحي وكريمة الذين تحملا معي هذه الدراسة .....

إلى إخواني وأخواتي وأزواجهم وزوجاتهم وأبنائهم .....

إلى زملائي إبراهيم احمد ومحمد خالد، محمد خير علي الذين لم يبخلوا عليّ بالمساعدة

إلى صديقي الصدوق عبد السلام علي الذي شاركني لغة الأرض وقاسمني شراع السنديان وختاما والختام مسك لا أنسى من زرع في البذرة الأولى ورعاها حتى أينعت محمود عوض

إليهم جميعا

اهدي ثمرة جهدي

الباحث

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
قائمة المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	ز
مقدمة	1
الفصل الأول الغارة: دوافعها، أهميتها، وصفها، وأدواتها	
المبحث الأول دوافع الغارة	6
1. الفقر والجوع	7
2. الكرم	15
3. الثأر	22
المبحث الثاني وصف الغارة	28
المبحث الثالث وصف أدوات الغارة	44
الفصل الثاني التشكيل البلاغي للغارة وأدواتها	
أولاً التشبيه	64
ثانياً الكناية	74
ثالثاً الاستعارة	77

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جزالة الألفاظ وقوتها	83
الإيجاز	90
الطباق	92
الفصل الثالث الغارة وموضوعات القصيدة	
المبحث الأول الغارة والمرأة	101
1. المرأة العاذلة	101
2. المرأة السبيّة	111
3. المرأة المعرضة	115
المبحث الثاني الغارة وصفات الشاعر	118
1. الشجاعة	118
2. الكرم	123
3. القوة واليأس	125
4. الحيلة والخداع	128
الخاتمة	132
المصادر والمراجع	134
الملخص باللغة الانجليزية	137

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الملخص باللغة العربية

العمري، مراد محمد. الغارة في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي دراسة الشكل والمضمون، إشراف أ. د أمل طاهر نصير.

تتكون هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، عرض الباحث في المقدمة أهداف الدراسة والمنهج الذي سلكه؛ لتحقيق هذه الأهداف، والدراسات السابقة التي أفاد منها، كما تحدث فيها عن فصول الدراسة وأقسامها.

تناولت في الفصل الأول أهمية الغارة ودوافعها ووصفها ووصف أدواتها في ثلاثة مباحث: أولها دوافع الغارة وثانيها وصف الغارة وثالثها وصف أدوات الغارة.

وفي الفصل الثاني تناولت التشكيل البلاغي للغارة وأدواتها، فوقفت فيه على أهم السمات البلاغية التي تشكل منها شعرهم الخاص بالغارة وأدواتها، وأشرت إلى الأساليب البلاغية التي قلت وفسرت سبب قلتها.

وفي الفصل الثالث تحدثت فيه عن الغارة وموضوعات القصيدة الأخرى وجعلته في مبحثين: الأول الغارة والمرأة والثاني الغارة وصفة الشاعر.

ثم أنهيت الدراسة بخاتمة عرفت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وقائمة بالمصادر والمراجع، وملخص باللغة العربية والانجليزية.

الكلمات المفتاحية: الغارة والصعاليك.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمة:

لقد عاش الصعاليك في مجاهل الصحراء والقفار بعد طرد قبائلهم لهم وتمردهم عليها، أو في ظل غياب من يحاسبهم على مخالفة الأعراف القبلية السائدة، وقد امتهن هؤلاء الصعاليك مهنة الإغارة على البدو والحضر، يسلبون وينهبون، ويقتلون، ويقطعون الطرق، من أجل الحصول على ما يسدون به عوزهم، ويملؤون معدهم الخاوية، ومن أجل إطعام غيرهم من الفقراء الضعفاء، إحساسا بحالهم وبحثا عن مجد وصيت وثأراً، لمن قُتل من رفاقهم.

لقد تناول الدارسون ظاهرة الصعلكة من غير زاوية ظاهرة وأثروا ظاهرة الصعلكة أيّما إثراء، وسأتناول ظاهرة الصعاليك في دراستي هذه من زاوية أخرى مستقلة مفصلة وهي "الغارة في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي".

وتكمن أهمية هذه الدراسة بأنها تسلط الضوء على واحد من أهم دوافع قول القصيدة لدى الشاعر الصعلوك، إن لم نقل أهمها على الإطلاق، وهو الحديث عن الغارة، وما جرى بها، فوصفها وصفا دقيقا بدءا من التخطيط لها، وقد حقق الغاية التي من أجلها كانت الغارة، وأيضاً وعما استخدموه من أسلحة كالسيف والسهم والقوس والرمح والخيل، وما استعانوا به من عوامل طبيعية، كالشِعب والمراقب والليل وغيرها.

وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الغارة، وكشف دوافعها الحقيقية، وبيان ما يتمتع به الصعاليك من صفات خلقية، وهموم إنسانية من خلال وصفهم الدقيق لتلك الغارات وبيان أثر ما استخدموه من أدوات على نتائج غاراتهم. وتهدف هذه الدراسة أيضاً إلى بيان أبرز السمات البلاغية التي وضعوها في شعرهم الذي عبروا به عن تلك الغارات، بالإضافة إلى أهم الموضوعات المرتبطة بها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولا بد من الإشارة إلى الدراسات السابقة ذات الصلة التي خاضت في هذه الظاهرة منها: " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" يوسف خليف، "شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه" عبد الحليم حفني، الآخر في شعر الصعاليك" خالد المطيري، "صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي" منذز كفافي، "الصورة الفنية في شعر الصعاليك حتى نهاية العصر الأموي" إلهام حمادة، الغارة عند الصعاليك في العصر الجاهلي "حسن ربابعة".

ولقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تقوم على مقدمة وثلاثة فصول يعقبها خاتمة.

أما الفصل الأول؛ فجاء بعنوان الغارة: أهميتها، دوافعها، وصفها، أدواتها، وقد تناول الباحث هذا الفصل بثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: دوافع الغارة وتحدث فيه عن أهم الدوافع التي دفعت الصعاليك نحو امتهان هذه الحرفة (الغارة)؛ فخلص الباحث إلى ثلاثة دوافع رئيسية وهي الفقر والجوع، والكرم والثأر.

وأما المبحث الثاني: فكان لوصف الغارة، وتحدث الباحث فيه عن أهم الأحداث التي وقف عندها الصعاليك في غارتهم، ووصفوها وصفا دقيقا، ومنها وصف شجاعتهم، وإقدامهم، وحيلتهم، ومراقبهم، وشعبهم وغير ذلك.

أما المبحث الثالث: فكان لوصف أدوات الغارة، وتناول الباحث فيه أهم الأدوات التي استخدمها الصعاليك في غارتهم، ومكانة هذه الأدوات من الصعاليك، وأثرها على نتائج تلك الغارات.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأما الفصل الثاني: التشكيل البلاغي لشعر الغارة وأدواتها. وقف فيه الباحث على أهم السمات البلاغية التي تشكل منها شعر الغارة وما استخدموه من أدوات للمتلقي بشكل جميل وواضح.

وقد تناولت في هذا الفصل أهم السمات البلاغية التي تشكل منها شعرهم الخاص بالغارة وأدواتها، مثل: (التشبيه، الكناية، والاستعارة، وغرابة الألفاظ وجزالتها، والإيجاز والطباق) وأشرتُ إلى الأساليب البلاغية التي ظهرت بشكل قليل والتي لم تصل إلى حد أن تعتبر سمة بلاغية في شعرهم، مثل: (الجناس، التورية، حسن التعليل، تقديم ما حقه أن يتأخر).

وأما الفصل الثالث: الغارة وموضوعات القصيدة الأخرى فقد تحدثتُ فيه عن أهم الموضوعات التي اتصلت بشعر الغارة وارتبطت به ارتباطاً وثيقاً، وقد خلصت إلى موضوعين رئيسين مفرداً لكل واحد منهما مبحثاً خاصاً به جاءا على النحو التالي: المبحث الأول بينت فيه أهم صور المرأة التي ارتبط ذكرها بالغارة كالمرآة العاذلة، والمرأة السبية والمرأة الناقدة.

والمبحث الثاني الغارة وصفات الشاعر، وقد كشفت فيه أبرز الصفات التي حاول الشاعر من خلال الغارة بيانها، والافتخار بها، وكان من أبرزها الشجاعة، والقوة والبأس، والكرم، والحيلة.

أما الخاتمة، فقد تحدث الباحث فيها عن أبرز ما توصل إليه في دراسته هذه، وقد اعتمدت في دراستي هذه على المنهج التحليلي الوصفي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول

الغارة: أهميتها، دوافعها، وصفها، أدواتها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول

الغارة: دوافعها، أهميتها، وصفها، أدواتها

قُبَيْلَ الحديث عن دوافع الغارة وأهميتها ووصف أدواتها، لا بُدّ أن نتعرف على معناها اللغوي، وفي ما يأتي بيان ذلك:

- جاء في لسان العرب: أغار الرجل: عجّلَ في الشيء وغيَّره. وأغار في الأرض: ذهب، والاسم: الغارة. وعدا الرجل غارة الثعلب: أي مثل عَدْوه.
- والغارُ: الخيل المُغيرة، قال "الكُميت بن معروف":

ونحنُ صَبَحْنا آلَ نَجْرانَ غارةً تَميمَ بنَ مُرٍّ والرِّماحَ النّوابِسا

والغارة: الجماعة من الخيل إذا أغارت. ورجلٌ مِغوار بيِّن الغِوار: مقاتل كثير الغارات على أعدائه. وفرس مغوار: سريع.

- وفي الصحاح للجوهري: أغار أي شدَّ العدو وأسرع، وأغار الفرس إغارةً وغارةً: اشتد عدوه، وأسرع في الغارة وغيرها[1].
- وفي القاموس المحيط: أغار: عجَّل في المشي، وشدَّ الفتلَ، وذهب في الأرض. وعلى القوم غارةً وإغارةً: دفع عليهم الخيل كاستغار، والفرس: اشتد عدوه في الغارة[2].
- وفي المعجم الوسيط: الغارة: الهجوم على العدو. والخيل المغير[3].

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة غور، بيروت- لبنان، دار إحياء التراث العربي،1993م، ط3، ج10، 142.

(2) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مادة غيرة، بيروت- لبنان، دار الجيل، د.ت،ج2، 109.

(3) المعجم الوسيط، مادة غار، المكتبة العلمية، طهران، 1977، ج2، ص 666.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

انطلاقاً من هذه المادة اللغوية للغارة، نستطيع أن نصل للمعنى الاصطلاحي: وهو شدُّ العدو، والإسراع نحو الأعداء على الخيل وغيرها من أجل الحصول على المال، وغيره.

المبحث الأول

دوافع الغارة

لقد عَرف العرب في العصر الجاهلي الغارة وألفوها واعتادوا عليها، وأصبحت عندهم من الضروريات للبقاء على قيد الحياة في وسط الصحراء القاحلةِ المليئةِ بأسباب الموت والظلم وازدراء الإنسان على أساس العِرق واللّون، وفي ظلِ التوزيعِ غيرِ العادلِ لأسباب الحياة وانحصار المال بيد قلّةٍ صغيرةٍ من الناس وتركِ الآخرين لمواجهة الحياة وحدهم من غيرِ رحمةٍ ولا شفقة.

فما كان من هؤلاء الفقراء المُعدمين إلاّ أنْ "يشقّوا طريقهم بالقوّةِ نحو حياةٍ كريمةٍ أبيّة، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم، وينتزعون لُقمة العيش من أيدي من حرموهم منها، دون أن يُبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعةً أم غيرَ مشروعه؟ فالحق للقوة والغاية تُبرر الوسيلة"[1].

وتحقيقاً لهذه الأسباب وغيرها ظهرت مجموعةٌ من فرسان العرب وفُتّاكها أُطلق عليهم "الصعاليك"، الذين ظهروا وخرجوا من صُلبِ هذا المجتمع رافضين لتلك العادات والتقاليد الجائرة القائمةِ على أساس التمييز والتفريق بين الإنسان وأخيه الإنسان فاتخذوا من "الغارة" وسيلةً لتحقيق أهدافهم وغاياتهم المتعددة والمتنوعة بحسبِ حالِ الغائر والمُغار عليه وبحسبِ

---

(1) خليف، يوسف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، القاهرة- مصر، دار المعارف،1978، ط3، ص33.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدافعِ لهذه الغارةِ والمرجوِّ منها. وسأتناول في هذا الجزءِ من الدراسةِ دوافع الغارة عند الصعاليك بكثيرٍ من التفصيل والتحليل.

1. الفقر والجوع:

الفقر والجوع كلمتان متلازمتان، فالثانيةُ نتيجةٌ حتميةٌ للأولى، وهما أيضاً صفتان شبه دائمتين لحياة الكثيرِ من العرب في العصر الجاهليِّ نتيجةً لقلّةِ الموارد في تلك الصحراء الّتي كانوا يعيشون فيها، فقلّةُ الموارد فرضت صراعاً دائماً بين الناس، فمن يملكُها يملكُ الحياةَ، ومن يفقدها يفقدُ الحياة؛ لذلك "كانت الحروبُ والغزوات طابعَ الحياةِ ومِحورها"[1].

ولم يكن الصعاليكُ بعيدين عن هذا الصراع، فقد عانَوا كثيراً من قلّةِ الموارد، ومِنَ الفقرِ "فلا شكَّ أنّ أوّلَ ما نَحُسُّهُ في حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذي لازمهم منذُ نشأتهم، وكان من أبرز الأسبابِ التي دفعتهم إلى الصعلكة؛ ولذلكَ نجدُ الرواياتِ تقرن غاراتهم وغزواتهم بالفقر"[2]. فلم يكن أمام هذا الصعلوك الفقيرِ الّذي يواجه الحياة وحيداً إلاّ أنْ يستخدمَ القوّةَ لانتزاع لقمة العيش من أيدي من حرموه إيّاها، وبخلوا عليه بها، فاتّخذ من الغارةِ أداةً ووسيلةً للتخلُّصِ من الفقر.

" هذا الفقر الذي استبدَّ بحياة الصعاليك، وحمل لهم في ركابه الجوع، نتيجةً طبيعيةً له، ولعلَّ الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير"[3].

---

(1) السُّليك بن السّلكة، **الديوان**، قدم له وشرحه: سعد الضناوي، بيروت– لبنان، دار الكتاب العربي، 1994م، ص 14.

(2) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 29.

(3) المصدر نفسه، ص 29.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونجدُ ذلك جليّاً في شعر الصعاليك ، ذلك الشعر الّذي حمل "صورةً مؤلمةً لمـا كـانوا يُعانونَ من الجوع القاسي الذي يتعرَّضون له كثيراً"[1]، ولا يكاد يفارقهم لحظةً واحـدة، يقـول عُروة بن الورد:

أقيمـوا بنـي لُبْنـى صُـدورَ رِكـابِكُمْ فـإنَّ منايـا القَـوْمِ خَيْـرٌ مـن الهـزلِ

فـإنّكم لـن تبلغـوا كُـلّ هِمّتـي ولا إربتي حتـى تـروا منبـتَ الأثـلِ[2]

وهُنا يأمر عُروةَ نفسه ورفاقهُ بتوجيه الرِكاب وتجهيزها للغارة غير آبهين بالموت، فقد أدرك عُروة ورفاقهُ أنَّ موت الفتى غانماً خيرٌ له من الموت جائعاً ذليلاً، وأنّهم لن يحصلوا على حاجتهم، ويَسدّوا جوعهم، ويستعيدوا عافيتهم إلاّ في بلاد الأثلِ، ومكان الأثل هنا كنايةً عن توغل أصحاب الغارة واقترابهم من المُراد وهم القوم المُغار عليهم.

وهذا السُّليك بن السّلكةِ أيضاً يعرض في شعره للسبب الرئيس والـدافع الأوّل مـن وراء غارتهِ وهو الفقر الذي كاد أنْ يفقدَ حياتهُ من أجلهِ بحثاً في الأرض عن الرزق للـتخلصِ مـن حياةِ الجوع، وحياةِ الهُزال، وسوءِ الحالِ الذي بلغ به مبلغه حتّى أنّهُ إذا قام لحاجةٍ سقط علـى الأرض مغشيًّا عليه من الجوع وآثاره، فيقول:

---

(1) حفني،عبد الحليم، **شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه**، القاهرة– مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 190.

(2) عروة بن الورد العبسي، **شعره**، صنعة يعقوب بن اسحاق السكيت، تحقيق محمد فؤاد نعناع، القاهرة– مصر، مكتبة الخفاجي، 1995م، ص55. اقيموا: وجهوا في الغزو. الهزل: الجوع. اربتي: حاجتي. الأثل: شجر ينبت في الجبل.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وما نِلْتُهَا حتّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً وكِدتُ لأسبابِ المنيّةِ أعْرِفُ

وحتّى رأيتُ الجوعَ، بالصّيفِ صرّني إذا قمتُ تغشّاني ظِلالٌ فأسْدفُ[1]

وترى الشنفرى يدور في نفس الفلكِ، ويعرضُ في شعره أيضاً للغارة الّتي يكون الدافعُ من أجلها سدّ الجوع وما يحيط به من فاقة، حيث نرى الوصف، وتصويرَ حال الغارة، وما يُرافقها من أحداث صار يُردِّدها الشنفرى بشيء من الإسهاب والتنويع، وأحياناً التخصيص، انها هو يصف إحدى غاراته مع رفاقه، ومنهم "تأبط شراً"، فيعرض لكرِّهِ وفرِّهِ وبعض الأحداث الصغيرة الّتي حدثت إبّانَ الغارة، وكان يشير إلى رفيقه تأبط شراً (أم عيال): كما يُسمِّيه، وبقيّة رفاقه، فيُقيتهم بالقليلِ القليلْ، وما ذلك بُخلاً منه، ولكن خوفاً على رفاقهِ من الجوع، الّذي لا يلبث أنْ يتجدد لدى الصعاليك كما هو حالهم معظم وقتهم، فيقول:

أمشّي على أينِ الغُزاةِ وبُعدها يُقرِّبني منها رواحي وغُدوتي

وأمّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتهم إذا أطعمتهم أوتَحَتْ وأقلّتِ

تخافُ علينا العيلَ إن هي أكثرت ونحن جياعٌ ، أيّ آلٍ تألّتِ

وما إنْ بها ضنٌّ بما في وِعائها ولكنّها من خيفة الجوعِ أبقتِ[2]

---

(1) السُّليك بن السّلكة، **الديوان**، ص 84. تصعلكت: عشت حياة الصعلوك. ضرني: من الضرر والهزال. غشيه: أتاه، والغشيه الإغماء. ظلال: جمع الظل وهو الخيال، أطياف وتهيؤات. أسدف: نام، دخل في الظلمة، وأسدف: أظلمت عيناه من الجوع أو كبر.

(2) الشنفرى الأزدي، **شعره**، تحقيق ودراسة احمد محمد عبيد، أبو ظبي- الإمارات، المجمع الثقافي، 2000م، ص 80. أين: تعب. الغزاة: الغزوة. الرواح: السير في المساء. الغدوة: السير ما بين الفجر وطلوع الشمس. أم عيال: تأبط شراً. تقوتهم: تطعمهم. أوتحت: أعطت قليلاً. العيل: الفقر. آل: سياسة وفكرة. ضنّ: بخل.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويأخذ هذا الدافع مسؤوليّة أكبر عند عُروة بن الورد، فـالأمر لا يتعلـق بـه وحـده، فالمسؤوليّة عندهُ تتجاوز نفسه، وتصل إلى رفاقه الصعاليك الذين يتساقطون من شـدّةِ الإعيـاء والجوع، فهو دائماً يشعر بالمسؤوليّة تجاههم، وأنّه مُلزم بهم، فهو لهم بمثابة الأب لأبنائه، يُغيرُ لهم دائماً لكي يُخلّصهم من عناء الجوع والفقر، ويُعرّضُ نفسه للمخاطر من أجل إطعامهم، حتّى وإنْ لم يحصلْ على ما يريد في غارته، فقد عذر نفسه أمامهم، فالخروج للغارة خير من القعود، والاستسلام لحياة الفقر والجوع، إذ قال:

قلـتُ لقـومٍ فـي الكنيـفِ تروّحـوا عـشيّةَ قِلنـا عنـد مـاوان رُزّحِ

تنـالوا المُنـى أو تبلغـوا بنفوسـكم إلـى مُـستراح مـن عنـاءٍ مُبـرّحِ

ومـن يـكُ مثلـي ذا عيـالٍ ومُقتِـراً من المـالِ يَطْـرَحْ نفـسَهُ كُـلَّ مَطـرحِ

ليبلـغَ عُـذراً أو يُـصيبَ رغيبـةً ومُبلِـغُ نفـسٍ عُـذرها مثـلُ مُـنجِحِ[1]

وفي خبر[2] إحدى غارات السُليك بن السّلكة، أنّه ذهب بأصحابه بحثاً عن المال، فتركوه خشيةَ أنْ يهلِكوا، ولم يبقَ معه غير رجلٍ يُدعى (صُرد) فأصابه الحزن والفزع لبُعْدِهِ عن أهله، وخشيةَ الموت على يد الأعداء، فما كان من السُليك إلا أنْ بثّ في نفسه الطمأنينةَ والثقـةَ بـأنّ الغارةَ ستنجح، وتُحقِقُ هدفها، وبأنّك ستعود إلى أهلك سالماً، وغانماً الطعام، الذي سيُعينُكَ على الحياة، ويُخلّصُكَ وأهلك من الجوع والفقر، فقال:

---

(1) عروة بن الورد، **شعره** ، ص 52- 53. الكنيف: الحضيرة من الشجر تتخذ للإبل والغنم. تروحوا: سيروا وقت الرواح. ماوان: وادٍ فيه ماء. رزّح: مهازيل. العناء: التعب الشديد. المبرح: المؤلم الموجع. مقتر: مقل. الرغيبة: الشيء المرغوب فيه. المنجح: الظافر الغانم.

(2) الأصفهاني،**الأغاني**، تحقيق علي النجدي ناصف، بيروت- لبنان، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د.ت، ج20، ص 380.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقلتُ لـه: لا تبكِ عينُك، إنّها قضيّةُ ما يُقضى لنا فنؤوبُ

سيكفيك فقدُ الحيّ لحمٌ مُغَرَّضٌ وماءُ قُدورٍ في الجفانِ مَشُوبُ[1]

ويُبيّنُ تأبط شراً دافع غارته وهدفها، ويُوضّح الغاية المرجوة منها، وهو علاج الفقر والقضاء على الخصاصةِ، وليس جمع المال وتكنيزه، فتأبط شراً مدرك تمام الإدراك أنّ كل شيء لا شك زائل، فلماذا الادّخار والتكنيز والبخل على النفس؟

سَدِّدْ خِلالَكَ من مالٍ تُجَمِّعُهُ حتى تُلاقِي الذي كلُّ امرىءٍ لاقِ[2]

لقد أيقن الصعاليك أنْ لا سبيل للتخلّص من حياة الفقر والجوع إلاّ بالغارة بالرغم ممّا في الغارةِ من مخاطرَ وموتٍ محتملٍ، فالفقر لا يجلب إلاّ المهانةَ والذلّ، وقد تحمل الغارةُ غنىً ويساراً في العيش، فلا خيار لديه سوى الغارة، فإنْ حصل على ما يريد يعيش بيسرٍ، وإنْ حال الموت دون غايته، فقد عذر نفسه، وعذره الصعاليك، فالموت في الغارة خير له وأجدر من الموت جائعاً ذليلاً، يقول عروة:

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشاً لنفسِهِ شكا الفقرَ أو لامَ الصَّديقَ فأكثرا

وما طالبُ الحاجاتِ من كل وِجْهةٍ من الناسِ إلاّ من أجَدّ وشمّرا

فَسِرْ في بلادِ الله والتمسِ الغِنَى تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعْذرا

---

(1)السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 57. قضية: قضاء وإمضاء الأمر وأحكامه. نؤب: نعود ونرجع. لحم مغرض: لحم طري. الجفان: جمع جفنة، وهي أعظم ما يكون من القصاع. مشوب: من شاب، أي خالط.

(2) تأبط شرًا، الديوان، جمع وتحقيق وشرح، علي ذو الفقار شاكر ، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1984م، ص 143. الخلال: جمع خله وهي خصاصة الفقر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فلا تَرْضَ من عـيشٍ بـدونٍ ولا تـنم وكيف ينامُ الليـلَ مَـنْ كـان مُعْـسِرا[1]

وبما أنّ الصعلوكَ لا يجدُ شفقةً وعطفاً من أحدٍ؛ فهو لا يقعد عن الغارة ؛ فهي الوسـيلةُ الوحيدةُ أمامهُ للتخلص من الفقر، فالفقر كما تقول زوجة عُروة: لا يـأتي إلاّ بجفـا الأقـارب، وتنكيس الرأس بين الرجال، وجرح الفؤاد، فلا بُدَّ من المخاطرةِ بالنفس من أجلِ الحصول على ما يَسُدُّ به المرء خصاصته من مال الغنيمة، هذا المالُ الّذي يصنع لصاحبه المهابـة والتعظـيم والإكبار في نفوس الناس بعكس الفقر الذي لا يجلب لصاحبه إلاّ الذلَّ والهوان، يقول عُروةَ على لسان زوجته:

قالـت تُماضِـرُ إذ رأت مـالي خَـوَى وجَفَـا الأقـارِبُ فـالفؤادُ قَـريحُ

مـالي رأيتـك فـي النَّـديّ مُنَكِّـساً وَصِـباً كأنّـك فـي النَّـدِيّ نَطِـيحُ

خاطِرْ بِنفـسِك كـي تُـصيبَ غَنيمـةً إنَّ القعـودَ مـعَ العيـالِ قبـيحُ

المـال فيـه مـهابةٌ وتَجـلَّةٌ والفقـرُ فيـه مَذلَّـةٌ وفُـضُوحُ[2]

والأمرُ كما قلت سابقاً: لا يقف عند عُروةَ وحده، فقد تجاوز رفاقه الصعاليك فهو يشعر دائماً بالمسؤوليّةِ تجاههم، ونجد أنَّ الدائرةَ عند عروةَ تتسع، فالأمر عنده أصبح لا يتوقف عنده، وعند رفاقه الصعاليك، بل يتجاوز إلى أنْ يصل لقبيلته (مُعتم وزيد)، فعُروة يُنكر على نفسه أنْ تهلِك قبيلتُهُ، ونفسُهُ ما دامت بين جنبيه يخاطر بها من أجل إبعاد قبيلته عن شبح الجوع والفقر، ولا بُدّ من إفزاع مَنْ تُسوّل له نفسه بأنّنا تركنا الغزو والغارة، كـإفزاعِ الخيـل لأخـذ الإبـل،

---

(1)عروة بن الورد، شعره، ص 88. وجهة: الجهة والجانب. أجد: اجتهد. شمر: جدّ.

(2) المصدر نفسه، ص 87- 88. خوى: خلا. قريح: جريح. الندي: مجلس القوم. منكساً: خافض الرئس. وصبا: وجع ومرض. النطيح: الرجل الذي يتشاءم به. تجلّة: جلالة وعظمة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المطرودة المذعورة، ولا يريد عُروة أنْ يترك للفقر والجوع أيّ منفذ ينفذ إليه، والى رفاقه وقبيلته، حيث أنّه يقضي أيامه بالغارة تارةً على أهل الصحراء وتارةً على أهل الجبل:

أتهلكُ مُغْتَمٌّ وزيدٌ ولم أُقِم على نَدبٍ يوماً ولي نفسٌ مُخْطِرِ

ستُفْزِعُ بعد اليأسِ مَنْ لا يخافُنا كواسِعُ في أُخرى السَّوامِ المُنَفَّرِ

فيوماً على نجدٍ وغاراتِ أهلها ويوماً بأرضٍ ذاتِ شُثٍّ وعَرْعَرِ[1]

وهذا أبو خِراش الهُذلي يدافع عن فرار ابنه خراش من إحدى الغارات التي لم تُنجح، وكاد أنْ يفقدَ حياته فيها، ويؤكد أبو خراش أنَّ ابنه لم يكن ضعيف القلب جباناً، في رغدٍ من العيش وإنّما دفعه نحو الغارة ألم الجوع، ورغبته بالتخلّص منه يقول:

ولم يكُ مثلوجَ الفؤادِ مهبَّجاً أضاع الشبابَ في الرَّبيلةِ والخفضِ

ولكنّه قد نازعتْه مخامِصٌ على أنّه ذو مِرّةٍ صادقُ النَّهضِ[2]

إنّ الدارس لشعر الصعاليك يدرك تماماً أنّ الصعاليك لم يقوموا بالغارةِ لعباً منهم ولهواً، ولكنّهم دُفعوا إليها دَفعاً، وجُرّوا إلى ساحات الوغى جَراً، فالجوعُ لم يترك لهم سبيلاً، ولا خياراً آخر، فقد قسى عليهم لدرجةِ أنّهم ألفوه، واختاروا الصبر على حياةٍ بها ذل، فعلى الرغم من فقرهم وحاجتهم إلاّ أنّ أنفسهم أبيّةً، فالموت عندهم خيرٌ من حياةِ الصَغار، يقول أبو خِراش:

وإنّي لأُثوي الجوعَ حتّى يملَّني فيذهبَ لم يَدنَسْ ثيابي ولا جِرمي

---

(1) المصدر نفسه، ص 49. معتم وزيد: قبيلتان من عبس. السوام: الابل السائمة الراعية. أخرى: آخرها. المنفر: المذعور. الشث والعرعر: نوعان من أشجار الجبال.

(2) ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، 1965، ص 158. مثلوج: ضعيف. مهبج: مثقل. الربيلة: كثرة اللحم وتمامه. مخامص: جوع.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأغتبــقِ المــاءَ القــراحَ فــأنتهي إذا الــزاد أمــسى للمــزلّج ذا طعــم

مخافــةَ أن أحيــا بــرغمٍ وذلّــةٍ ولَلموتُ خيرٌ مــن حيــاةٍ علــى رَغَــمِ[1]

وهذا الأعلم الهذلي يذكر أهله وأولاده، وحاجتهم إلى الطعام، وتملأُ قلبه الحسرة، وكـذا الألم، فقد أصبحوا ينتظرون مَن يتحسن عليهم من أقاربهم بشيءٍ من الزاد:

وذكرتُ أهلي بالعراء وحاجة الشُعثِ التوالبْ المُصْرِمينَ مِنَ التِّلادِ اللّامحينَ إلى الأقاربْ[2]

وكلّما اشتدّ بهم الجوع وطأةً وألماً ازدادوا صبراً وعزيمةً وأنفةً وعزةً، فهذا الـشنفرى يختارُ الصبرَ، وأكل التراب على أن يَمُنّ عليه أحدٌ " وأنّه لولا عِزّة نفسه والارتفاع بها عمّـا يُشينها لما عزّ عليه طعامٌ، ولا شراب، فيقول في لاميته"[3]:

أُديــمُ مِطــالَ الجــوعِ حتــى أُميتَــهُ وأضــربُ عنــهُ الــذِّكْرَ صَــفْحاً فأذْهَــلُ

وأَستَفُّ تُرْبَ الأرضِ كي لا يُرى لهُ عَلــيَّ مِــنَ الطَّــوْلِ امــرُؤٌ مُتَطَــوِّلُ

ولولا اجتنابُ الذَّام لم يُلْــفَ مَــشْرَبٌ يُعــاشُ بِــهِ إلا لَــديَّ ومَأكَــلُ[4]

---

(1) المصدر نفسه، ص 127- 128. الجرم: الجسد. المزلّج: هو الأمر الخفيف وورد بمعنى البخيل والدون من كل شيء. رغم: هوان وذلة.

(2) السكري، الحسن بن الحسين، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، بيروت- لبنان، دار الكتب العالمية، 2006م، ص 214. العراء: الصحراء. الشعث: ولده. التوالب: الجحاش. المصرم: المقل الذي لا مال له. التلاد: المال القديم الموروث. اللامحين: الناظرين.

(3) حفني، **شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه**، ص 192.

(4) الشنفرى، **شعره**، ص 112. مطال: مدة. الطول: المنة. الذام: العيب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي وسط هذا الفقر المؤلم والجوع المضني، يصرخ عمرو بن برّاقة صرخة المستهجن المنكر على من أصابه الفقر والجوع، كيف ينامُ ليلاً، ويرضى بالجوع وما سَبَّبَهُ من ذلٍ وهوان، ولا يُشهرُ سيفهُ الذي هو جُلُّ مالِه، فهو لن يحصلَ على لقمة العيش إلاّ بحدِّ السيف:

وكيف ينـــام الليـــل مَـــنْ جُـــلُّ همِّـــهِ حُـــسامٌ كلـــونِ الملـــحِ أبـــيضُ صـــارمُ[1]

2. **الكرم:**

هذه الصفة التي لطالما استهوت العرب وتنافسوا عليها، وتنازعوا، ولعلَّها برزت عندهم أكثرَ من غيرهم، فهي من ضمن مجموعة "الشمائل الخيرة التي عاشها الإنسان العربي"[2]، فاهتم بها العربُ رحمةً وعطفاً منهم على الفقراء المُعدمين الذين لا يجدون من يُعيلهم، ويشعرُ بمعاناتهم، وبحثاً عن مجد وصيت يُخلِّد ذكرهم، ويَجْعَلهم أعلاماً يُشار إليهم بالبنان. والذي يثير الاهتمـــام والإكبار أنّ تجدَ هذه الصفة مغروسةً في نفوس الصعاليك على الرغم من فقـــرهم وحـــاجتهم، ولعلَّهم أرادوا بذلك "أنْ يحقِّقوا لهم مكانةً في هذا المجتمع الذي يحتقرهم، ويستهين بهـــم عـــن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه، وبما لهم من مآثر وأمجاد، فهم فقراء، ولكنّ الفقرَ لم يَقْعُد بهم عن إدراك المجد، وهم شجعان لهم أنفةٌ وقوّةٌ وفُتُوَّة، وهم بعد كلِّ ما تقدم يملكون الرغبـــة فـــي تحدي الأقوياء والعطف على الضعفاء"[3].

واتخذوا مِنَ الغارةِ وسيلةً لتحقيق هدفِهم بالعطفِ على الفقراءِ، وسَد خـــصاصتهم بمـــا يحصلوا عليه خلال غاراتهم من غنائم، ووصولاً إلى مجدٍ يخلِّد ذكرهم، ولعلّ أكثر ما نجد ذلك، عند عروة بن الورد فقد كان أكرم " وأرفع الصعاليك نفساً؛ لأنّه كان يعين غيره أكثر ما يعين

---

(1) الجبوري، **يحيى، قصائد جاهلية نادرة**، بيروت– لبنان، مؤسسة الرسالة، 1982م، ط1، ص100.

(2) المصدر نفسه،315.

(3) المصدر نفسه،315.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

نفسه"[1]، وقيل " إن عبد الملك بن مروان قال: من زعم أن حاتماً أسمحُ الناس، فقد ظلم عـروة بن الورد"[2]، وكان يعطف على الصعاليك أنفسهم، وينفق عليهم، ويقوم على أمرهم، فقد "كـان يُلقَّبُ عروةَ الصعاليك لجمعه إيّاهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معـاش ولا مغزى"[3].

واستطاع عُروة من خلال زعامته على الصعاليك وقيامه بـأمرهم أن يـؤثر بحركـة الصعلكة برُمَتها، " وأنْ يُضفي عليها صبغةً مُحببةً بما أشاع فيها من نزعة إنسانية خُلُقيّة تهدف إلى تحقيق التعاضد الاجتماعي، والتعاطف الإنساني في المجتمع بعد أنْ كان اتجاهها يميل إلـى السلب والغزو وسفك الدماء حباً في الانتقام، والتشفي من الأعداء كما كان يبـدو فـي سـيرة الشاعرَيْن الصعلوكَيْن الشنفرى الأزدي، وتأبط شرا"[4]، يقول عروة مخاطباً امرأته:

أقِلّـي عَلـيّ اللـومَ يـا بنـتَ مُنـذرِ ونامي وإنْ لـم تَـشتَهي النـومَ فاسـهري
ذرينـي ونَفـسي أمَّ حَـسّانَ إنَّنِـي بهـا قبـلَ ألا أملِـكَ البيـعَ مُـشْتَري
أحاديـثَ تبقـى والفتـى غيـرُ خالـدٍ إذا هـو أمْـسَى هامـةً فَـوْقَ صَـيّرِ
ذرينـي أُطَـوِّفْ فـي الـبلادِ لعلَّنـي أُخَلِّيـكِ أو أُغْنيـكِ عـن سُـوءِ مَخْـضَرِ
فـإنْ فـازَ سَـهمٌ للمَنيَّـةِ لـم أكـنْ جَزُوعـاً وهـل عَـنْ ذَاكَ مِـنْ مُتـأخَّرِ
وإنْ فازَ سـهمي كَفَّكُـمْ عـن مقاعـد لكـم خَلْـفَ أدبـارِ البيـوتِ ومَنظـرِ
أبى الخفضَ مَنْ يَغْشاكِ مِنْ ذي قرابةٍ ومِـنْ كـلِّ سـوداءِ المعاصـمِ تعتـري[5]

---

(1) المصدر نفسه،ص 318.
(2) الأصفهاني،الأغاني، ج 3، ص 74.
(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 73.
(4) عروة بن الورد، شعره، ص 6.
(5) المصدر نفسه، ص 41- 45. ابنت منذر: امرأته سلمى. أم حسان: كنية امرأته. الصير: القبر. الخفض: الدعة ولين العيش. المعاصم: جمع معصم: وهو موضع السوار من اليد. تعتري: تأتي طالبة المعروف.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يُخاطبُ عُروة بن الورد عاذلة: مطالباً إيّاها بعدم الإكثار عليه من اللوم، فهي تلومه كثيراً، لكثرة غاراته وغزواته، ويطلب منها النوم أو السهر بدلاً من اللوم، وفي هذا دلالة على وقت الغارة الذي كان غالباً ما يكون ليلاً، ويؤكد عروة أنّ كثرةَ اللوم أو قلّته لا تؤثر به، وأنّه مستمرّ بغاراته، وأنّ نفسه التي تخاف عليها زوجته سيبيعها للفقراء والمحتاجين، ويشتري بها مجداً يخلّدُ ذكره، فالإنسان مهما طال عمره سيموت، وسينتهي به الأمر إلى القبر، ولكنّ الذي يبقى هو ذكره، لذلك يطلبُ من زوجتهِ أن تتركه يُغيرُ في البلاد، فإمّا أن يموتُ فيُخلّي سبيلها لزوج غيرَه أو يُغنيها، ويُبعدُ عنها الفقر، وما يترتب عليه من سوء محضر، فالموت لم يعد يخيفه، فإنْ مات في الغارة، فذاك أجله، وإنْ غنم، فسوف يغنيها عن أنْ تجلس خلف أدبار البيوت تسأل الناس الطعام، والأمر لا يتعلق بزوجته، فحسب بل بالفقراء والأقارب الذين يأتونه ويسألونه أيضاً، وكأنّه يقول لها: "فإن قعدتُ عن الطلب لم يكن عندكِ ما تقرين منه ضيفاً، ولا تصلين به قرابة"[1].

وبُعدَ المسافات بينه وبين أعدائه والموت المتوقع بأيّ لحظة لم يحل بينه وبين أعدائه، ولا هم أمنوا له بُعد المسافة أيضاً، فكل ذلك يهون عند عروة في سبيل تحقيق غايته، فإنْ مات غائراً فذاك بحد ذاته فخرٌ ومجدٌ وإنْ غنم، فسوف يقوم بتوزيع ما غنم على "المحتاجين، وإشراكهم فيه، حتى إذا امتلأ كأسه وطرقه إنسان وجد ذلك مهيّأً له يشاركه فيه قلّ أو كثُر، ومشاركته قائمة على صلة الأرحام، وإعطاء السائل، وذوي القربى، ومن تجب ضيافته"[2]، وفي هذا أيضاً مجد وفخر، يقول عروة:

فإن بَعُدُوا لا يأمَنونَ اقترابَهُ تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتَنَظِّرِ

---

(1) المصدر نفسه، ص 45.

(2) المصدر نفسه، ص 45.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فـــذلك إنْ يَلْـــقَ المَنيَّـــةَ يَلْقَهـــا حميـــداً، وإنْ يَـــستَغْنِ يومـــاً فأجـــدرِ

يُـــريحُ عَلـــيَّ الليـــلُ أضـــيافَ ماجـــدٍ كـــريمٍ ومـــالي ســـارِحاً مـــالُ مُقْتِـــرِ[1]

والمال الذي يسعى عروة للحصول عليه، ويبذل نفسه، وجهده في سبيل الاستيلاء عليه هو مالٌ محرَّمٌ عليه، فما أنْ يستولي عليه، ويظنُّ نفسه أصبح غنياً حتى يطرقَ الفقراء الضعفاء المعدمين بابه، فيعطيهم إيّاه لما يرى عليهم من حاجةٍ وسوء حالٍ، فصلة هذا الفقير حق وواجب على عروة، فرضها على نفسه كرماً، وعطفاً منه على هؤلاء الفقراء الذين أصابتهم الخطوب، وأخذت أموالهم:

إذا قُلْتُ قد جـاء الغِنـى حـالَ دُونَـه أبـو صِـبْيَةٍ يـشكو المفـاقِرَ أعجَـفُ

لـه خَلّـةٌ لا يَـدْخلُ الحـقُّ دونهـا كـريمٌ أصـابتْهُ خُطـوبٌ تُجَـرِّفُ

فـإني لمـستافُ الـبلادِ بـسُرْبَةٍ فَمُبلـغُ نفـسي عُـذرها أو مُطَـوِّفُ[2]

ويبلغ عُروة منزلة من الكرم والجود لم يبلغها مثله أحد من الصعاليك، ولا من غيرهم، فقد قِيل كما روي سابقاً أنّه "من زعم أن حاتماً أسمح الناس، فقد ظلم عروة بن الورد"[3]، فهو القائل:

إنّـي امـروٌ عـافي إنـائي شِـرْكَةً وأنـتَ امـروٌ عـافي إنائـكَ واحِـدُ

أتَهزأُ منـي أنْ سَـمِنتَ وقـد تـرى بجـسميَ مَـسَّ الحـقِّ والحـقُّ جاهِـدُ

أُقَـسِّمُ جِـسمي فـي جُـسُومٍ كثيـرةٍ وأَحْـسُو قـراحَ المـاءِ والمـاءُ بـارِدُ

---

(1) عروة بن الورد، شعره، ص 48- 50. تشوف: التطلع. المنية: الموت. أجدر: أي ما أجدره وأحقه بذلك.

(2) المصدر نفسه، ص 50- 51. المفاقر: أعجف هزيل. خله: صداقة. الحق: القرابة. السربه: جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين.

(3) الأصفهاني،الأغاني، ج 3، ص 74. عافي: طالب المعروف. شركه: جماعة. جسمه هنا طعامه.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يُسطِّرُ عروة بن الورد في هذه الأبيات قيما إنسانيّة رفيعة، وشيما عربية أصيلة تـذوب فيها الفوارق القبليّة، وتنصهر في بوتقتها الميّزات الطبقيّةِ، يمدُّ الغنيّ يده إلى أخيه الفقير، ويُطعم الشبعان أخاه الجائع، فكل ما يملكه عروة هو ملك لجميع الفقراء، حتى اللبن الذي يـشربه هـم شركاء معه فيه، وما يتوافر من طعام يُقسَّم على الفقراء والضيفان، مقدماً عروة هؤلاء الفقـراء والضيفان على نفسه، ولو كان به خصاصة، ويكتفي بالماء البارد القراح، ضارباً في ذلك صوراً رائعةً من صور الإيثار، والكرمِ، والجودِ، حيث قلَّ أنْ نجدَ ذلك عند غيره.

ولا يعرف البخل طريقاً إلى قلب عروة أبداً، فعروة والبخـل يـسيران فـي طـريقين متضادين لا يلتقيان أبداً بغض النظر عن الحالة التي يعيشها سواء أكانت حالة فقـر وعـوز أم حالة غنى وفضل؟ فإطعام الفقراء وسدُّ عوزهم هو أسمى غايات عروة، فيقول:

وقـد عَلِمَـتْ سُـلَيْمى أنَّ رأيـي ورأيَ البُخـلِ مختلـفٌ شـتيتُ

وأنّـي لا يُرينـي البُخـلَ رأيٌ سـواءٌ إن عطـشْتُ وإن رَوِيـتُ[1]

"ومن هنا جاءت شهرة عُروة، وبرزت شخصيته؛ لما اشتملت عليه هذه الشخصية مـن آداب إنسانيّة، وأخلاق كريمة، وروح مشاركة لم تعرف التكلف، ولم تتصنع الكرم، وقد تجلَّـت هذه الصفات في كل ما كان يصنعه من إحسان، وبذله من عطف وتمثلت أفضل تمثيـل فـي طريقة حياته، ومعاملته لهذه المجموعة التي عاشت فقيرة"[2].

---

(1) عروة بن الورد ، **شعره**، ص 78. العوالي: جمع عالية، وهي أعلى القناة. اللّب: العقل. زميت: حليم ووقور.

(2) القيسي: **الفروسية في الشعر الجاهلي**، مصدر سابق، ص 318.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهو بلا شك " شخصية فريدة، قائمة بذاتها في تاريخ الأدب الجاهلي، فهو أكثر من شاعر وأكثر من فارس، إنّه أبو الصعاليك، وداعية لمذهب الصعلكة كسبيل لإقامة نوع من العدالة الاجتماعية، بين فئات الخُلعاء والفقراء والمضطهدين من أبناء العرب، فلم يكن إقباله على الغزو غاية بحد ذاتها، بقدر ما كان وعياً شعورياً واضحاً ولَّدَهُ إحساس بالغبن الذي تتلقاه فئة من الناس، قدّرَ لها أنْ تعيش خارج المجتمع لأسباب كثيرة"[1].

وموضوع الكرم الذي اشتُهر به عُروة أكثر من غيره، والتصق اسمه به لم يكن بطبيعة الحال حكراً عليه، وإنّما شاركه به رفاقه الصعاليك، كيف لا وقد عاشوا حياة الحرمان، والمعاناة، واصطَلوا بنار الفقر، والجوع، والهُزال، ممّا جعلهم أكثر إحساساً بغيرهم من الفقراء والضعفاء، فهذا تأبط شراً يكشف عن تذمره وغضبه من عَاذلتهِ التي تلومه كثيراً، وبغلظةٍ، لإنفاقه المال على الفقراء الضعفاء طالبةً منه ادّخار المال وتكنيزه، فهذا المال عند تأبط شراً إنْ أبقاه سيتعرض للآفات، ولن تقيه خطوبُ الدهر، فالأولى إنفاقه على هؤلاء الفقراء لكي يستجلب المحامد والشكر. يقول:

عاذلتي إنَّ بعضَ اللومِ مَعْنَفَةٌ وهل متاعٌ وإنْ أبقيته باقِ؟![2]

ونرى أنّ الأعلمَ الهُذلي يؤكدُ أنّ سيادة الأقوام وزعامتهم تكونُ بقدر ما يكرمون به هؤلاء السادة ويجودون به كرما وجودا يشُق على البخلاء أنْ يأتوا بمثله، فطريق السيادة طويل وشاق وحتى تصل وترتفع إلى القمة يجب عليك أن تبذل من الكرم ما يشق ويعجز عنه غيرُك:

فإنَّ السَّيِّدَ المعلومَ فينا يجودُ بما يَضُنَّ به البخيلُ

---

(1) خلف، عبد الله، **الشعر ديوان العرب: الشعراء الصعاليك: دراسة تحليلية نفسية**، الإسكندرية، 1980، ص 80.

(2) تأبط شراً، الديوان ، ص 141.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإنَّ سـيادة الأقـوام فـأعلم لهـا صُـعَداءُ مَطْلَعُهـا طويـلُ[1]

وكما رأينا لم تكن الغارة عندهم وسيلةً للتخلص من الفقر، والجوع، وجمع المال فحسب، ولكنّها أيضاً وسيلة "للبذل والعطاء، واكتساب المحامد، والتشبه بالسادة الأغنياء في الكرم والجود"[2]، فلم يترك الصعاليك هاتين الصفتين حكراً على الأغنياء وإنّما نازعوهم عليها، وحملوا ألوية المجد والمحامد وحفروا أسماءهم على صخور التاريخ، مخلدين بذلك قصصاً، وأساطير في الكرم والجود.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(1) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 219. صعداء: ارتفاع.

(2) خليف، شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص35.

3. الثأر:

الثأر هو أيضاً أحد دوافع الغارة التي تضفي على الحديث نقلة ذات طابع خاص، وشكلاً جديداً لدى القارئ، وهذا الكلام إنّما يصح لكون الثأر عند العرب عموماً، والصعاليك على وجه الخصوص، وهو ظاهرة اجتماعيةٌ لا نستطيع بأي حال من الأحوال اعتبارها حدثاً عابراً.

إنّ الأخذ بالثأر لهو عملٌ شرعيٌ أقرته العادات والأعراف، التي كانت تحكم العرب في العصر الجاهلي، فصاحب الثأر ملزم بأخذ الثأر بحكم منظومة العادات والأعراف السائدة في مجتمعه، ولا يشعر عند أخذه بثأره بأي ذنبٍ أو ارتكاب جريمة، لا بل يُعَيَّبْ ويُذم إنْ لم يُدرك ثأره، فكما أنّ الثأر مُراده، فهو أيضاً مُراد أهله وأقاربه وسائر قبيلته، هذا وإنّ القبيلة برُمَّتها لملزمة بأخذ الثأر، ومعيبة بتركه، وستلحقها المذلة والهوان إنْ لم تغسل ذلك العار. ولم يشذ الصعاليك عن هذه المنظومة أو يتمردوا عليها كما تمردوا على القبيلة وعاداتها، ولكنّهم ساروا بفلكها ملزمين بالثأر، ومُعيَّبين بتركه، ولكنّ تمردهم على القبيلة ألقى على عاتقهم مسؤوليةً أكبر تجاه الثأر، فهم وحدهم أمام هذه المسؤولية بحكم تمردهم، ولم يكن أمامهم إلاّ الاعتماد على أنفسهم، وعلى رفاقهم في الصعلكة، فقد شنّ الصعاليك غارات وغزوات فراداً، وجماعات دافعها وغايتها إدراك الثأر، وإطفاء مرارة العار والقهر، ودواوينهم مليئة بأخبار تلك الغارات والغزوات التي عبَّروا عنها بأجمل صور، وتحدثوا عنها حديثاً مفصلاً ودقيقاً مفتخرين بغسلهم عار الثأر، وبوفائهم لرفاقهم الذين قُتلوا في تلك الغارات آخذين لهم بثأرهم ومنتقمين لهم من قاتليهم أو ثأراً لقومهم، ولآبائهم الذين قُتلوا في غارات ماضية.

ومن ذلك ما جاء في الأغاني[1]، غارة حاجز الأزدي ومعه جماعة من قومه، على بني هلال ثأراً لقومه الذين قتلهم "ضمرةُ بن ماعز" سيدُ بني هلال، ولكنّ حاجزاً لم يكتفِ بالثأر

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 13، ص 214- 215.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإنّما أراد أنْ يذكي جراح بني هلال، ويُلحق بهم العار بسبي مجموعة من نسائهم، وفي ذلك يقول مخاطباً ضمرة بن ماعز:

يـــا ضـــمرُ هـــل نِلنـــاكم بـــدمائنا أم هـــــل حـــــذونا نَعْلكـــــم بمثـــــالِ

نبكـــي لِقتلـــى مـــن فُقَـــيْم قُتِّلـــوا فـــــاليوم تبكـــــي صـــــادقاً لهـــــلالِ

ولقـــد شـــفاني أن رأيـــت نـــساءكم يبكـــين مُردفـــةً علـــى الأكفـــالِ[1]

وأمّا الشنفرى، فإنّه لا ينسى دمَ رفاقه، وإنْ بَعُدت بلاد الموتورين، فبعدها لن يعجزه أو يقعده عن إدراك ثأره، فهو يَرسُمُ لنا صورة ملؤها الشجاعة والجرأة والقسوة أيضاً، إذ يغير على العوص[2] صباحاً وفي وسط دارهم جالباً لهم الموت على رؤوس السيوف البواتك، ويأبى الشنفرى أنْ يَقتلَ بصاحبه عمرو بن كلاب الفهمي رجلاً واحداً من القوم، وإنّما يقتل به خيرة فرسانهم وصناديدهم، ولا يشفي الشنفرى غليله بالقتل وحسب، وإنّما يُمثّلُ بهؤلاء الفرسان وفاء منه لدم رفيقه، يقول:

ألا هـــل أتـــى عنّـــا سُـــعادَ ودونهـــا مَهامِـــــهُ بِيـــــدٍ تَعتلـــــي بالـــــصُّعالكِ

بأنّا صبحنا القـــومَ فـــي حُـــرِّ دارِهِـــم حِمـــــامَ المنايـــــا بالـــــسُّيوفِ البَواتـــــكِ

قَتَلْنـــا بِعمـــرو مِـــنهمُ خَيـــرَ فـــارسٍ يزيـــدَ وســـعداً وابـــنَ عـــوفٍ بمالـــكِ

ظَلَلنـــا نُفَـــرّي بالـــسُّيوفِ رُؤوسَـــهُم ونَرشُـــقُهمْ بالنَّبـــلِ بـــين الـــدَّكادكِ[3]

---

(1) المصدر نفسه ، ج13 ص 214 . المردفة: التي أُركِبت خلف الراكب. الأكفال: جمع كِفل، وهو العجز.

(2) العوص: حي من بجيله.

(3) الشنفرى، شعره، ص 107 . مهامه: جمع مهمة، وهي البلد البعيدة. البيد: جمع بيداء، وهي الصحراء. حر دارهم: وسط دارهم. البواتك: القواطع. نفرّي: نقطع ونشق. الدكادك: جمع دكدك، وهو ما غلظ من الأرض.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذا تأبط شراً يُحرِّمُ على نفسه شُرْبَ الخمر، حتى لو مُزِج هذا الخمر بالعسل والمـاء العذب، حتى يُدرِك ثأرَ أخيه عمرو بن جابر الذي قتلته بنو عُتير بن هذيل عندما أغار عليهم[1]، ولا يقف الأمر عند الخمر، وإنّما علَّقَ تأبط شراً حياته كلَّها فداء لدَم أخيه، ولن يرضى بأخيه إلاّ شيخ هُذيل وسيدها، وبعدها يُحِلُّ لنفسه ما حَرَّمَهُ عليها من شرب الخمر:

وحَرَّمْـــتُ الـــسِّبَاءَ، وإنْ أُحِلَّـــتْ بِـــــشَوْرٍ أو بِمِـــــزْجٍ أو لِـــــصابِ

حيـــاتي، أو أزُورَ بنـــي عُتَيْـــرٍ وكاهِلَهَـــا بِجَمْـــعٍ ذي ضَـــبَابِ

إذا وَقَعَـــتْ بِكَعـــبٍ أو قُـــرَيمٍ وسَـــيَّارٍ فقـــد ســـاغَ الـــشَّرابُ[2]

ولا يقرُّ ويهدأ جَنان الشنفرى، حتى يأخذَ بثأر والده من بني سلامان أعدائه الألدّاء، كيف لا؟! وقاتل أبيه واحد منهم يُدعى "حِزام بن جابر"، فما انفك الشنفرى يُغير عليهم حتى أدركَ ثأرَ أبيه، وشفى غليلهُ منهم، حيث يقول:

جَزَيْنا سَلامانَ بـنَ مُفْـرِجَ قِرْضَـها بمـــا قَـــدَّمَت أيـــديهِمُ وأزَلَّـــتِ

شـــفينا بعبـــدِ اللهِ بعـــضَ غَلِيلِنـــا وعَوفـــاً لـــدى المَعْـــدَى أوانَ اســـتهلَّتِ[3]

فلم يغب الثأر يوماً عن أذهان الصعاليك، ولم يُقْعِدهم بُعْدُ القوم أو كثرتهم عن إدراكه، فكانوا دائمي الحديث عنه، وهو أكبر همّهم، ومنتهى غايتهم، فهم إمّا مطلوبون بدمٍ أو طـالبون لدم، حتى أنَّ هذا الأمر كما جاء في الأغاني، وشى به أحدهم إلى امرأة كان تأبط شـراً يريـد

---

(1) الأصفهاني،**الأغاني** ، ج 21 ص 156 .

(2) تأبط شراً ، **الديوان** ، ص 68- 70. السِّباء: الخمر أو شرؤها. الشور: العسل. المزج: ما يمزج من الخمر من ماء وغيره. لصاب: الماء البارد العذب. أزور: هنا أغير. كاهلها: كبيرها. كعب وقريم وسيار: بطون من هذيل.

(3) الشنفري، **شعره**، ص 82- 83. أزلّت: قدمت. قوم: أي بنو سلامان.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الزواج منها قائلاً: بأنه رجل يموت في أيّ لحظةٍ لكثرة جناياته وغاراته، فلهُ في كل حيٍّ جناية وطالب، ولكنَّ تأبط شراً لم يخفِ أو ينكر هذا الأمر، وإنّما أكده، وافتخر به، فهو قليل النـوم لكثرة غاراته، وأكبر همّه هو الثأر، والى جانبه مقارعة الفرسان الأشداء:

وقـــالوا لهـــا: لا تَنكِحيـــهِ فإنَّـــهُ لأولِ نَـــصلٍ أن يُلاقِـــيَ مَجْمَعـــا

فلم تَـرَ مِـنْ رأيٍ فتـيلاً، وحـاذرت تأيُّمَهَـا مِـنْ لابِـسِ اللّيـلِ أرْوَعـا

قليـل غِـرَارِ النَّـومِ، أكبـرُ همِّـهِ دَمُ الثـأرِ، أو يَلقـى كَمِيّـا مُقَنَّعـا[1]

لقد نتج هذا الثأر عن كثرة الغارات التي شنَّها الصعاليك، وما جنوه في تلك الغارات من قتلٍ وسلبٍ، ونهبٍ، وسبي، ممّا خلق لهم في كل حي عدواً، وطالباً لهم بثأر، فأعداء عروة بـن الورد الذين كفوا عن مواجهته، وأخذ الثأر منه يتمنون له أنْ ينالَ منه قوم من الأقـوام الـذين أصابهم بدمٍ، أو تأكله الأسودُ لكثرة ما فعل بهم، يقول:

تَبَغَّـانيَ الأعـداءُ إمّـا إلـى دمٍ وإمّـا عُـراضَ السَّاعِدَينِ مُـصدَّرا[2]

ولا يطلبُ الثأر إلا رجل شجاع صنديد قد أنجبته امرأة حُرة شريفة هكذا يَردُ عروةُ بن الورد على من يُعَيِّره بأمّه، بأنّها امرأة غريبة مذكِّراً إياهم بأنَّ هذه الغريبة أنجبت رجلاً لا ينسى ثأره، ولا يتركه، فكيف يُعيَّرُ بها، يقول:

أعَيَّرتُمـــوني أنَّ أمـــي نَزيعَـــةٌ وهل يُنْجِـبَنْ فـي القـومِ غيـرُ النزائـعِ

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 113. نصل: السهم. مجمعا: الجماعة المقاتلة. الفتيل: يضرب به المثل في حقارة الشيء وصغره. تأيم: زواج. غرار: قليل. الكمي: الذي يكمي شجاعته. مقنع: الملثم.

(2) عروة بن الورد، شعره، ص 38 . عراض الساعدين: يريد أسداً، مُصدر: من نعت الأسد، وهو عريض الصدر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وما طالبُ الأوتارِ إلا ابنُ حُرّةٍ طويلُ نجادِ السيفِ عاري الأشاجعِ[1]

فطالبُ الثأرِ لا يمكنُ إلّا أنْ يكون إنساناً يحملُ بداخله صفاتٍ ملؤها الرجولة والشجاعة والعزة، ولا يقبل بحياة العار والهوان، وكما أنَّ الصعاليك لم يستسلموا أو يقبلوا بحياة الفقر والجوع، وما تنطوي عليه من ذل وهوان، لم يستسلموا أو يقعدوا عن إدراك الثأر، فكان الأخذ بالثأر هو من أهم دوافع الغارة، فهذا تأبط شراً يُحدّثُنا عن سبب غارته، وسبب جلوسه على مرقبةٍ عاليةٍ شاهقةٍ وهو إمّا الحصول على غنيمةٍ يسدُّ بها جوعه، أو يعطف بها على الفقراء المعدمين، وإمّا إدراكُ من أتى طالباً لثأره من أحد الصعاليك، يقول:

ومرقبةٍ شَمَّاءَ أقْعَيْتُ فوقها ليغنمَ غازٍ، أو ليُدركَ ثائرُ[2]

ما انفك الثأر ملازماً للصعاليك لِمَا جنوا وقتلوا بالغارات التي كانوا يشنّون، فكانوا إمّا طالبين لثأر وفاءً منهم لرفاقهم الذين قتلوا في الغارات ومن قُتِل من ذويهم، أو مُطالَبين بثأرٍ لِما اقترفوه من قتل ونهب في تلك الغارات.

لقد سطَّرَ الصعاليك ملاحم في مجال سعيهم لإدراك الثأر، وظلَّ هذا الحال مستمراً على امتداد عهد الصعاليك إنْ جاز لنا أن نقول عهد، فلقد رأينا وقرأنا ما صوَّروه لنا في هذا الصدد على شكل شعرٍ تقدم ذكره.

إنّني وقد فصّلتُ سالفاً في موضوع الثأر عند الصعاليك، لأرىُ بأنَّ دافعَ الثأرِ لم يكن حدثاً عابراً في فترتهم وسلوكهم، وإنّما كان ظاهرةً سجّلها التاريخ، وتعامل معها المهتمون والكُتّاب في هذا الباب على هذا الأساس، وفي شكله المطلق، هذا وممّا يجدرُ ذكره ولا يصحُّ

---

(1) المصدر نفسه، ص 75. نزيعة: غريبة. الأوتار: جمع وتر، وهو الذحل أي الحقد والثأر. نجاد السيف: حمائله. الأشاجع: جمع أشجع، وهي رؤوس الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف، ويريد أن اللحم قليل عليها.

(2) تأبط شراً ، الديوان ، ص 82. أقيعت: من الاقعاء، وهو تساند الرجل إلى ظهره. الثائر: طالب الثأر.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

إهماله أنّ دافع الثأر، وإنْ كان ظاهرة عامة، فإنه لعلى ارتباط وثيق وجليّ بدوافع الفقر، والجوع، والكرم، حيث اتضح ضمناً تارةً وبشكل ظاهر تارةً أخرى بأنّ ما كان من غاراتٍ وغزواتٍ من قبل الصعاليك يمكن إدراجها تحت باب ما يُسمّى بدافع الفقر، والكرم، والثأر، فنحنُ نرى الصعاليك عندما يَشُنّون غارةً مثلاً أو أخرى بدافع الجوع أو الكرم يتمخض عن ذلك نتائج فيها خروج عن غاية الصعاليك المادية كسدّ الجوع والتخلص من الفقر إلى غاية أخرى لا تكون أصلاً في الحسبان، فقد يرافق هذه الغارة معروفة الدوافع القتل مثلاً سواءً للغائر أو المُغار عليه، الأمر الذي يترتب عليه دافع الثأر، وكذا الأمر هو ارتباط دافع الثأر هذا بدافع الكرم.

إنّ الدوافع السابق ذكرها، كان لها نتائج، فكان الصعاليك يغيرون للفقر والجوع، وتكون النتيجة سد الجوع والفقر، ويغيرون لأجل الكرم، ومساعدة المعوزين والإحساس الشديد بمعاناتهم، فيتحقق لهم ذكر بين الكرماء، وكذا الثأر إذ كانوا يغيرون بدافع الثأر، وتكون النتيجة إدراك ذلك الثأر؛ إلا أنّ هناك نتائج كانت قد تولّدت عن هذه الدوافع هي ليست من أصل هذا الدافع، كأن يسبي الصعلوك النساء أثناء الغارة، وفي مجال الحديث عن السبي لا ننسى ما لهذا الموضوع من إرهاصات وحيثيات وأسباب، وكان من ذلك السبي نكايةً بالقوم المُغار عليهم أو السبي لغايته المعروفة والمباشرة وهو أن يقضي الصعلوك منها وطراً، وبمعنى آخر يبقى موضوع السبي حالة عارضة على دوافع الثأر الأساسية.

يجدر التنويه أنّ تَمسُكَ الصعاليك واهتمامهم بموضوع الثأر يدلُ على ما كان يتمتع به الصعاليك أنفسهم من صفة الوفاء، والإخلاص الراسخة في نفوسهم، والثابتة بطبائعهم وخاصة فيما بينهم، ويبقى موضوع الثأر باعتباره من أهم دوافع الغارة موضوعاً أبعد من أن نلم ونحيط بجميع جوانبه.

© Arabic Digital Library- Yarmouk University

المبحث الثاني

وصف الغارة

إنّني وإذ أتحدث عن الغارة ككل شعراً، وبعد هذا الشعر وصفاً وتحليلاً له خلا الإطلالات التي أُطلُّ بها على مواضيع مختلفة متعلقة بالغارة عند الصعاليك، لأجدُ من الضروري أنْ لا أُغفِلَ باباً مهماً من أبواب الغارة عند الصعاليك، هو وصف الغارة، وما كان يحيط بها من أحداث ومواقف وصور أبرزها لنا شعراء الصعاليك لإظهار هذا الوصف كما هو في الواقع.

ولا غرابة أنْ نجد شعر الصعاليك قد عجَّ بالحديث عن الغارة؛ لأنَّ الغارة كانت شغلهم الشاغل، وحِرفتهم المُحببة إليهم، والسبيل لتحقيق غايتهم، وسفينة النجاة من أمواج الموت جوعاً وذُلاً، من هنا تعاظمت أهمية وصف تلك الغارة عندهم، وصار الوصف لزاماً عليهم في شعرهم لإظهار ما تقدم، ناهيك عن بعض الجزئيات المفصلية المهمة كإبراز شجاعتهم، وذكائهم بسلوك سُبل النجاة من الموت المحقق، ووفائهم لرفاقهم بحمايتهم أو الثأر لهم، وهي لا يمكن إظهارها إلاّ من خلال ولوج باب الوصف.

لقد جاء وصف الصعاليك للغارة في شعرهم وصفاً شاملاً كاملاً ودقيقاً، فنجدهم يصفون الغارة، مُنذُ "أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خطتها، إلى أن تنتهي الغارة، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نَفَّذوا خطتهم، وحققوا أهدافهم، وهم يصفون في أثناء ذلك الطريق الذي سلكوه، ويتحدثون عن رفاق الغارة، ودور كل واحد فيها، وكيف نفذوا خطتهم، وكيف

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كانت آثارها في أعدائهم، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا"[1].

ومن هذا الوصف الدقيق تجلّت لنا صورة الغارة عند الصعاليك كما هي في واقع الأمر، فاستطاع الصعاليك من خلال شعرهم أن يُبرزوا هذا الوصف الذي وجدتــه واضــحاً وجليّــاً ومُعبراً.

فهذا تأبط شراً كان يَشتارُ عسلاً في غارٍ من بلاد هُذيل[2]، وقد علمت لحيان بأمره فــأتوا وأخذوا عليه فم الغار ولم يكن معه سلاح يومئذ، فأدرك تأبط شراً أنّه يواجه موتاً محققاً لا سبيل للنجاة منه إلاّ الحيلة، فإنْ نجا بها، فلن يصعب عليه بعدها أيُّ أمرٍ، وإنْ كبر وتعاظم خطره:

فإنّــكَ لــو قاسَــيتَ بالنِّــصبِ حِيلتــي ... بِلِحيانَ، لم يَقْصُرْ بِكَ، الــدَّهرَ، مَقْــصَرُ

ويبدأ تأبط شراً يصف لنا ذكاءه وقدرته على النجاة في ذلك اليوم العسير الذي مرَّ بــه، فها هو يُخيَّر لحيان بين الفداء والمنّ وبين القتل، فيشغلهم بالحديث ويراوغهم ريثما يستعدُّ لتنفيذ خطة الهروب التي دبَّرها وأعدَّها في نفسه:

أقــولُ للحيــانِ، وقــد صَــفِرَتْ لهــم ... عيابي، ويومي ضَيِّقُ الحجرِ، مُعْــوِرُ

لكــم خَــصلةٌ: إمّــا فــداءٌ ومِنّــةٌ ... وإمّــا دمٌ، والقتــلُ بــالمرءِ أجــدرُ

وأخرى أُصادي الــنَّفسَ عنهــا، وإنّهــا ... لخطَّــةُ حــزمٍ، إن فعلــتُ، ومــصدرُ

---

(1) خليف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، ص 182.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 21، ص 140.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويبدأ الشاعرُ بتنفيذ الخطة بإراقة العسل على فم الغار، والهرب من ثقب أسفل الغار يساعده على ذلك دقّةَ خصره ونحافته، وضخامة صدره فينجو من بين فكي الموت، وهو ينظر إليه بهوان واستحياء، وينتهي به الأمر بالعودة إلى قومه سالماً بعد أنْ كاد لا ينجو من الموت:

فرشتُ لها صدري، فزلَّ عن الصَّفا ... به جُؤجؤٌ، عبلٌ، ومَتنٌ مُخصَّرُ

فخالطَ سهلَ الأرضِ، لم يكدح الصَّفا ... به كدحةٌ، والموتُ خزيانُ ينظرُ

فأبْتُ إلى فهمٍ، وما كِدْتُ آيباً ... وكم مِثلها فارقتها وهي تَصفِرُ[1]

وأمّا عروة بن الورد، فإنّه يُمثِّلُ للصعاليك الملاذ الأخير إذا سُدَت السبل في وجوههم، فهو يقوم على أمرهم إذا أصابهم الجوع، والجدْب كما حصل مع أناس من بني عبس[2]، أصابهم جوعٌ شديد فأتوا عروة يستغيثون به، فعطف عليهم، وخرج يغزو بهم، فيبدأ عروة بعد ذلك يصف لنا ما جرى في تلك الغارة، لا بل يُحدِّثُنا عمّا جرى في طريقه للغارة عندما لقي مالك بن حمار الفزاريّ وطلب منه أنْ يرجع ويعود، ويأبى عروةُ الرجوعَ، فإنْ فعل أمنهُ أعداؤه، وملَّه قومه، وهانَ على من استغاثَ به، وأصبح في وسط البيت كالرأل تلاعبه الولدان:

أليسَ ورائي أن أدِبَّ على العصا ... فيأمَنَ أعدائي ويَسْأمني أهلي

رهينةُ قَعْرِ البيتِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... يُلاعِبُني الولدانُ أهدِجُ كالرألِ[3]

---

(1) تأبط شراً، **الديوان**، ص 88- 91. اللصب: المضيق بالجبل. لحيان: القوم الذين احتال عليهم. عيابي: جمع عيبة. صفرت: فرغت وخلت. معور: مخوف حرج. الخصلة: الفضيلة والرذيلة عند الانسان. أصادي: من المصاداة، وهي المداراة. الجؤجؤ: الصدر، العبل: الممتلئ الضخم. الصفا: الارض الصلبة الملساء. يكدح يؤثر

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 3، ص 81.

(3) عروة بن الورد، **شعره**، ص55.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبعد رفضه الرجوع، وعزمه على الغارة يأمر رفاقه بالاستعداد، ويبينُ لهم أهميتها ودافعها، فالموت فيها خير من حياة الجوع والهزال والذُّل، ولن يحققوا ما خرجوا من أجله، ويبلغوا مُرادهم إلاّ إذا وصلوا يثرب منبت الأثل؛ أي أرض النخيل، ويؤكدُ عروةُ لرفاقه أنّه ماضٍ معهم في غارتهم غير متخاذل، ولا خائف ولو كان مثلوج الفؤاد لرجع عندما طلب منه مالك بن حمار ذلك، ولكنّهُ يقول: لهم إنَّ مثلي لا يرجع، ولا يُلام على أمر يطلبه:

أقيموا بني لُبنى صُدورَ رِكابكم ... فإنَّ منايا القومِ خيرٌ من الهَزْلِ

فإنَّكم لن تبلُغوا كُلَّ هِمّتي ... ولا إربتي حتى تَروَا مَنْبتَ الأَثْلِ

فلو كنتُ مثلوجَ الفُؤادِ إذا بَدَتْ ... بلادُ الأعادي لا أُمِرُّ ولا أُحلي

رجعتُ على حَرْسَيْن إذ قَالَ مَالكٌ ... هَلَكْتَ وهل يُنْجي على بِغْيةٍ مِثلي

ويُبشرُ عروةُ رفاقه بأنَّ رحيلهم، وركوبهم المطيّ، ومشيهم في البلاد لن يذهب سُدىً، فها هو ينتهي بهجمة إبلٍ ترد عين ماء، فيختار عروةُ أكثرها عدداً، وأقلها أهلاً، فيقتل أهلها، ويطردها فلا تجد من يلحقها وينجيها، وإذا نزل بها مهبط مخوف ليأكلوا ويستريحوا يبعث ربيئاً يرقب لهم الطريق، فيظل واقفاً يُقلِّبُ بصرهُ في الأرض كأنّه الجذل:

لعلَّ انطلاقي في البلادِ ورِحلتي ... وشدِّي حيازيمَ المطيَّةِ بالرَّحلِ

سَيَدْفَعُني يوماً إلى ربِّ هجمةٍ ... يُدافِعُ عنها بالعُقُوقِ وبالبُخلِ

قليلٌ تواليها وطالبُ وِترِها ... إذا صِحْتُ فيها بالفوارسِ والرَّجْلِ

إذا ما هَبَطْنا مَنْهَلاً في مخوفةٍ ... بَعَثْنا ربيئاً في المرابىءِ كالجِذْلِ[1]

(1) عروة بن الورد، شعره، ص56.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يُقَلِّبُ في الأرضِ الفضاءِ بِكَفِّهِ وهنَّ مُناخاتٌ ومِرجَلُنَا يغلي[1]

ما انفك الصعاليك يستخدمون الحيلة والخداع في غاراتهم سواء في سلك سبل النجاة والهرب من أعدائهم كما رأينا تأبط شراً عندما اشتار عسلاً في غار من بلاد هذيل[2]، أم في الهجوم على أعدائهم كما حصل مع السُّليك بن السلكة عندما أتى سوق عكاظ في الشهر الحرام[3]، وجعل يطوف في الناس، ويطلب إليهم أنْ يصفوا لهم منازلَ قومِهم، فيصف لهم هو منازل قومه، وما ذاك إلاّ حيلةٌ منه، وخطة لغارة ينوي القيام بها؛ ليكون على علم مسبق بمكانها قبل بدء الهجوم فيجيبه" قيس بن مكشوح المرادي" فيصفَ له منازل قومه، لينطلق بعدها السليك برفقة فتيان من بني سعد، وبني عبد شمس، ولكنّهم عادوا وتركوه لانقطاع الماء، وخشية الهلاك في هذه الصحراء المجدبة القاحلة، ولم يبقَ معه إلاّ رجلٌ يقال له صُرد، فيشرع السُّليك بوصف تلك الغارة فيبدأ بوصف شعور رفيقه صُرد لحظة بعده عن دياره وقربه من ديار الأعداء، فيبدأ صُرد بالبكاء ويمتلئُ قلبه خوفاً وهلعاً خشية الموت جوعاً وقتلاً في بلاد الأعداء:

بكى صُردٌ لمّا رأى الحيَّ أعرضَتْ مَهامِهُ رَمْلٍ دونَهم وسُهوبُ

وخوّفَهُ ريبَ الزمانِ وفَقْرَه بلادُ عدوٍّ حاضرٍ وجُدُوبُ

ونأيٌ بعيدٌ عن بلادِ مُقاعِسٍ وإنَّ مَخاريقَ الأمورِ تَريبُ[4]

---

(1) عروة بن الورد، **شعره**،، ص 57. ورائي: أراد أمامي. يسأمني: يملني. الرئل: فرخ النعام. أهدج: من الهدج وهو تدارك الخطو. أمرُّ وأحلي: المرُّ والحلو من الفعال. حرسين: اسم مكان. =يحلى: يلام. هجمة: قطعة من الابل ما بين الخمسين والستين. الفوارس: جمع فارس. الرِّجل: من الراجل وهو الماشي. المنهل: المورد، وهي عين ماء تردها الابل. المرابئ: العين والطليعة. الجذل: أصل الشجرة. المرجل: قدور من النحاس.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ط 21، ص 140.

(3) المصدر نفسه، ج 20، ص 378.

(4) السُليك ابن السلكة، **الديوان**، ص55.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولكنَّ السُّليك لا يترك رفيقه بهذه الحالة، وإنّما يُهوّنُ عليه الأمر، ويؤكدُ له أنّ مَهمتَنا ستُقضى، ونعود إلى ديارنا، ويعِدهُ بأن يُعوضه بعده عن دياره لحماً طرياً، وماءً قدور، ولمَ الحزنُ واليأس؟! طالما أنّ الدهر لونان أو يومان: يومَ حزنٍ وغمٍ، ويومَ فرحٍ وسرورٍ، وبما أنّ السرور لا يدوم، فكذلك هو الحزن والغم، ويؤكد له أهمية المُضي بهذه الغارة حتى تحقيق الهدف فما فائدة من خرج يطلب المال والخير، وينتظر أهله عودته وقد حقق غايته، إنْ عاد ولم ينجح أو يحقق شيئاً؟!:

فقلت له: لا تبكِ عينُكَ، إنَّها ... قضيّةُ ما يُقْضى لنا فَنؤوبُ

سيكفيكَ فقدَ الحيّ لحمٌ مُغرَّضٌ ... وماءُ قُدورٍ في الجِفانِ مَشوبُ

ألم تَرَ أنَّ الدهرَ لونانِ لونُهُ ... وطورانِ: بِشرٌ مَرةً، وكذوبُ؟

فما خيرُ مَنْ لا يُرتجى خيرَ أوبةٍ ... ويُخْشى عليه سُربةٌ وحُروبُ

فبعد هذا استطاع السُّليك أنْ يزيلَ فزع صرد وخوفه،وأنْ يردَّ نفسه له، ويعيد له الهدوء بعد أنْ سيطر عليه الفزع والقلق والهلع كظبي انقضَّ عليه عُقاب بمنسار حاد، وتنفيذاً لوعده بأنَّ المهمة ستنتهي قريباً ويعودون إلى أهلهم، يبدأ السُّليك في الصباح الباكر غارته، التي يذوب لهولِها الفؤاد:

رددتُ عليه نفسَهُ، فكأنما ... تلاقى عليه مِنسرٌ وسَرُوبُ

فما ذرَّ قرنُ الشمسِ حتى أرَيتُهُ ... قُصارَ المنايا، والفُؤادُ يَذوبُ[1]

(1) المصدر نفسه، ص57-60.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقد وضع السُّليك الخطة لهذه الغارة بحيث يتولَّى هو المهمة الصعبة، وهي قتال القوم وإشغالهم حتى يتمكّن رفيقه من نهب الإبل بكلِّ سهولةٍ، ولا يترك السُّليك جزئية صغيرة في الغارة إلا ويصفها كوصفه لنوع الإبل التي ينهبونها وهي حميرية، موجودة في المراعي، لا بل تقضي مهمة رفيقه أنْ يطرد الإبل الموجودة حول المنازل، والتي ترد على الماء، ولا يريد بذلك أنْ يبقي لهم بعيراً واحداً، ويحدِّثنا السُّليك أيضاً عن شدّة فخره واعتداده بالغارة، وحبِّه للقتال فيها، فهو يذكر ليلة قتاله في ساعةٍ يُفضّل ويُحبذُ العودة فيها، ولكنّه يؤثر القتال على ذلك:

وضاربتُ عنهُ القومَ حتى كأنّهُ ... يُصَعِّدُ في آثارهم ويَصوبُ

وقلت له: خُذْ هَجمةً حِمَيَّريةً ... وأهلاً، ولا يبعدْ عليك شُروبُ

وليلةَ جابانٍ كررتُ عليهمُ ... على ساعةٍ فيها الإيابُ حبيبُ

وينهي السُّليك وصفه لتلك الغارة بحديثه عن سببها، وهو ضياع ناقة رفيقه ممّا اضطر رفيقه للبحث عنها، فأسره القوم، ولم يكن أمام السُّليك إلاّ إثبات الوفاء لرفيقه بتخليصه من الأسر، فخاض السُّليك قتالاً دامياً مع الفرسان وقتل منهم عدداً كبيراً لدرجة أنّ خيلهم تلطخت واصطبغت بدمائهم،والناظر لها يظنُّ أنّها سُكب عليها الزعفران أو الحناء:

عشيةَ ضَلَّت للحراميّ ناقةٌ ... بِحَيِّهلاَ يدعو بها فتُجيبُ

فضاربتُ أولى الخيلِ حتى كأنما ... أميلَ عليها أيدعٌ وصبيبُ[1]

---

(1) السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص61. صرد: رفيقه. أعرض: بعُدَ. سهوب: بطون الأرض المستوية. جدوب: جمع جدب، وهي الأرض المجدبة. نأي: مفارقة وبعد. بلاد مقاعس: منازل جماعة السليك. مخاريق: جمع مخراق، وهو الرجل المتصرف بالأمور. لونان: وجهان. طوران: حالتان. البِشر: الطلاقة =والفرح. السرية: المسير الليلي. مِنسر: منقار النسر. ذرَّ قرن الشمس : أشرقت الشمس. يُصعِّد: يرقى من أسفل إلى أعلى ويصوِّب العكس. جابان: موضع. الحراميّ: رفيقه. أيدع: صبغ أحمر. صبيب: دم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد حظيت الغارة عند الصعاليك بأهميةٍ كبيرة، فلا غرابة أنّ نجد دواوينهم مُلئت بالحديث عنها، فهي بلا شك مصدر رزقهم، وموطن فخرهم واعتزازهم بشجاعتهم وبطولاتهم، وأداةٌ لنيل ثأرهم، وسبيل لتخليد ذكرهم بين الكرماء، يعزمون أمرهم عليها ويمشون في طريقها على الرغم من بُعد المسافات، ولوم الزوجات، وكثرة الأعداء، وتخويف الأصدقاء.

فهذا الشنفرى يصف لنا غارة خرج فيها مع عِدَّةٍ من فهم[1]، ومعه أيضاً تأبط شراً، وعمرو بن براق، وعامر بن الأخنس، والمسيب، ومُرّه بن خُليف، يريدون العوص وهم حيٌّ مِنْ بَجيلة، فقتلوا منهم نفراً، وأخذوا لهم إبلاً، وفي الطريق اعترضت لهم خثعم، ودارت بينهم معركة دامية، يتكفلُ بعدها الشنفرى بوصفها لنا منذ كان في البيت يستعد للانطلاق غير ملتفتٍ إلى لوم زوجته وثنيها له عن الخروج، فهو يدرك تماماً حقيقة الخطر الذي تُخوّفُهُ منهُ، ويعلم جيداً أنّه سيصيبهُ سواءٌ خرج للغارة أم لم يخرج:

دعيني وقولي بعدُ ما شئتِ إنني ... سيُغدى بنعشي مرةً فأُغيَّبُ

يبدأ الشنفرى بعد عزمه على الخروج بوصف رفاق الغارة، فهم ثمانية كأنّهم الذئاب، وجوههم مشرقة لا ترى فيها فزعاً ولا جزعاً، غير مبالين بما سيؤول إليه أمر من تركوا من أهلهم، فلا همّ لهم سوى إنجاح غارتهم، حتّى الماء لا يعرجون عليه بالرغم مع حاجتهم الشديدة إليه:

خرجنا فلم نعهدْ وقلّتْ وصاتُنا ... ثمانيةٌ ما بعدها مُتَعَتَّبُ

سراحينُ فتيانٍ كأنّ وجوهَهم ... مصابيحُ أو لونٌ من الماءِ مُذْهَبُ

نمُرُّ بروهِ الماءِ صفحاً وقد طوتْ ... ثمائلُنا والزادُ ظنٌّ مُغيَّبُ

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 141.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبعد مسير ثلاثة أيام مشياً على الأقدام يصل الصعاليك إلى هدفهم، يتقدمهم رجلٌ طويل شجاع صاحب خبره في الحرب:

ثلاثاً على الأقـدام حتـى سـما بنـا على العوص شعشاعٌ من القومِ مِخْـرَبُ[1]

وتبدأ المعركة بين الصعاليك وخثعم في الثلث الأخير من الليل وهو الوقت الذي يختاره الصعاليك في معظم غاراتهم، ولعلّهم يريدون من ذلك إيهام العدو، فـلا يعـرف عـددهم، ولا أسلحتهم فيستهين بهم.

وتعلو صيحات القوم، وتختلط بصيحات الصعاليك، ويبدأ تأبط شراً الهجوم بتوجيه ضربات قويّة، ومتسارعة بسيفه، وأمّا سيف المُسيَّب فقد قطع عظام القوم، ونال منها ما نال، وفي وسط هذه الضربات يقوم الشنفرى ومعه فتيان من الصعاليك بالدفاع عن المجموعة حتى انجلى غُبار المعركة، وقد قتل الصعاليك من القوم ما قتلوا، وسلبوا منهم ما سلبوا، وانهزم القوم، وقد مُلئت قلوبهم فزعاً ورعباً، حتّى إنّهم ظنّوا أنّ الصعاليك يصبون عليهم من كل مرتفع مـن الأرض، وينهي الشنفرى وصفه لهذه الغارة بالحديث عن فرحة قومهم بعودتهم سالمين وقد حصلوا على ما أرادوا من مال وغنائم:

فثاروا إلينا فـي الـسَّوادِ فَهجْهجـوا وصَـوّتَ فينـا بالـصَّباحِ المُثَـوِّبُ

فـشنَّ علـيهم هِـزّةَ الـسيفِ ثابـتٌ وصَـمّمَ فـيهم بالحـسامِ المُـسيَّبُ

---

(1) الشنفرى، شعره، ص73.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وظَلْـــتُ بفتيـــانٍ معـــي أتقـــيهمُ بهـــنَّ قلـــيلاً ســـاعةً ثـــم جَنَّبـــوا

وقد خـــرَّ مـــنهم راجـــلانِ وفـــارسٌ كمـــيٌّ صـــرعناهُ وقِـــرمٌ مُـــسلَّبُ

يَـــشُقُ إليـــه كـــلَّ ربِـــعٍ وقلعـــةٍ ثمانيـــةٌ والقـــومُ رجـــلٌ ومِقْنَـــبُ

فلمـــا رآنـــا قومنـــا قيـــل: أفلحـــوا فقلنـــا: أســـألوا عـــن قائـــلٍ لا يُكـــذَّبُ[1]

لقد اهتمَّ الصعاليك بوصف الغارة اهتماماً بالغاً، حتّى إنّك لا تكاد تجدُ قصيدة أو مقطوعة من شعرهم تخلو من ذكر الغارة، وما كان يجري فيها من قتال مستميت بشجاعة وعزم منقطع النظير، وحتّى وإنْ قُتل الصعلوك في هذه الغارة، فإنّها تُصبحُ منقبةً من مناقبه يستوجبُ على رفاقه ذكرها في رثائهم له.

وقد فعل ذلك تأبط شراً أيضاً عندما قُتل رفيقه الشنفرى، فأخذ يرثيه، ويذكر مناقبه، وخير هذه المناقب مشاركته وقتاله في تلك الغارات التي كانوا يشنّونها في تلك الفيافي، فيستهلُّ تأبط شراً رثاءه بالدعاء له بالسقيا؛ سقيا غمام ممطر ينهمر الماء من كلِّ جوانبه صباحاً، فهو أندى وأكثر رطوبةً:

على الشنفرى ساري الغمـــامِ، فـــرائحٌ غزيـــرُ الكُلـــى، وصَـــيِّبُ المـــاءِ بـــاكِرُ[2]

فهو يستحق هذا الدعاء، وهذا الرثاء لما فعله يوم الجبا، ويوم العيكتين وهو يوم مشهور لتأبط شراً، والشنفرى، وعمرو بن براق مع بجيلة[3]، فقد اهتزَّ السيف الحاد القاطع بيده لسرعة

---

(1) الشنفري، شعره، ص 73- 75. سراحين: ذئاب. رهو الماء: الماء المجتمع في المكان المنخفض. ثمانيا: بقايا الصعام والشراب في البطن. ظن مغيب: لا وجود له. شعشاع: طويل حسن. السواد: الظلمة. المثوّب: العائد. صمّم: ضرب العظم وقطعه. جنبوا: انكشفوا ومالوا. قرم: سيد وبطل. ربع: الجبل أو مسيل الوادي.

(2) تأبط شراً، الديوان، ص78.

(3) الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 131- 132.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لسرعة ضربه به، وقد هجم عليهم هجوماً مست به حناجرهم قلوبهم من شدّةِ الخـوف والهلـع، ويُصوّر تأبط شراً لنا رفيقه الشنفرى وهو بحركة دائمة سريعة لا تتوقف يضرب بالسيف مرةً، ويعطف عليهم مرةً أُخرى، ثمَّ يجول بينهم بسلاحه فيفرُّون منه كما تفرُّ الضأن من الذئاب:

عليـك جـزاءٌ مثـلُ يومِـكَ بالجَبَـا ... وقـد رَعَفَـتْ مِنـكَ الـسيوفُ البـواترُ

ويومِـكَ يـومِ العيكتـينِ، وعطفـةٍ ... عطفـتَ وقـد مـسَ القلـوبَ الحنـاجرُ

تجـول بِبـزٍّ المـوتِ فـيهم كـأنَّهم ... بـشوكتكَ الحُـدّى، ضـئينٌ نـوافرُ

وعلى الرغم من حركته السريعة والدائمة يطعن العدو طعنةً كبيرةً تغور فـي جـسده، وتنفذ إلى الجانب الآخر، طعنةٌ انتهزها الشنفرى بحذقةٍ وذكاء، يسيل منها الدم بغزارة كما يسيل الماء من قربة مثقوبٌ أسفلها، ومن شدّة ألمها يحاول المجروحُ عبثاً أنْ يعالجها، فيميد وكأنه قد ذهب عقله لشربه الخمر:

وطعنـةِ خَلـسٍ قـد طعنـتَ مُرِشَّـةٍ ... لهـا نفـذٌ تَـضِلُ فيـه المـسابرُ

إذا كُشفتْ عنها الـستُورُ شـحا لَهـا ... فـمٌ، كفـم العـزلاءِ، فيحـانُ فـاغِرُ

يظـلُّ لهـا الآسـي يميـدُ كأنَّـهُ ... نزيـفٌ هراقـتْ لبّـهُ الخمـرُ سـاكرُ[1]

---

(1) تأبط شراً ، الديوان، ص 78– 80. ساري الغمام: السحاب الممطر ليلاً. الجبأ: موضع. رعثت: من الرعث، وهو سرعة الطعن. العيكتين: موضع. العطفة: الكرة والهجمة. بزّ: السلاح. الحدّى: من الحدة وأراد الحادة. ضئين: جمع ضأن مثل المعز. طعنة خلس: يختلسها بحذقة. المسابر: جمع مسبار، وهو أداة يقدر بها غور الجراحات. شحا: انفتح. العزلاء: مصب الماء من القربة. فيحان: واسع. فاغر: منفرج ومفتوح. الآسي: الذي يلتمس لجرحه دواء. نزيف السكران: هراقت أذهبت.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والأمر عند عمرو ذي الكلب يختلف نوعاً ما، فهو لا يصف الغارة، وما جرى بها، وإنّما يتحدث عن نجاته، وإفلاته من القتل مجيباً بذلك "غزيّة"، وهي المرأة التي استهجنت عودته سالماً، ويقول مُخاطباً إياها:

ألا قالت غزيةُ إذ رأتني ... ألم تُقتلْ بأرضِ بني هلالِ

أسرك لو قُتلتُ بأرضِ فَهمٍ ... وهل لكِ لو قُتلتُ غُزيَّ مالِ

ولا يلقي بالاً لاجتهاد وتمنّ وتهديد أعدائه بقتله، بل يهددهم ويتوعدهم إنْ نجا منهم بشنّ غاراتٍ عليهم، وخوض قتال معهم لا رحمة ولا هوادة فيه، وأنّه سيستمر بغزوهم إنْ كان مع جماعة الصعاليك أو مع واحد أو اثنين منهم، ولن يكفّ عنهم حتى يقتل رجالهم، ويرى نساءهم يضربن بالنعال على صدورهن حُزناً على أزواجهن، وهو بذلك يصف لنا غارة أو غاراتٍ قبل أنْ تحدث بخلاف رفاقه الصعاليك الذين يصفون الغارة بكلّ ما جرى بها، فيقول:

بُجليةُ دونها ورجالُ فهمٍ ... وكلّ قد أنابَ إلى ابتهالِ

لئن أبصرتُه عيناً خُصوصاً ... يُقادُ إذاً سَيفدوهُ بمالِ

فإن أُثقِفْتُموني فاقتلوني ... وإنْ أثقفْ فسوفَ ترونَ بالِ

فأبرحُ غازياً أهدي رعيلاً ... أؤُمُّ سوادَ طودٍ ذي نِجالِ

ويبرحُ واحدٌ واثنانِ صحبي ... ويوماً في أضاميمِ الرجالِ

بفتيانٍ عمارط من هُذيلٍ ... همُ ينفونَ آناسَ الحلالِ[1]

(1) السكري، شرح اشعار الهذايين، ص59.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأبـرُحُ فـي طـوالِ الـدهرِ حتـى أُقِـيمَ نـساءَ بَجْلَـةَ بالنعـالِ[1]

وكما وصف الصعاليك ما جرى في غاراتهم من حيلةٍ وشجاعةٍ في القتال، وكذلك في حماية رفاقهم، وإصرارهم على الثأر لهم إذا قُتلوا، ووصفهم أيضاً لنتائج هذه الغارات كالنّهب والسلب والقتل والسبي، فإنّهم أيضاً لم يُغفلوا الحديث عن تلك المراقب الشامخة التي كانوا يتربصون من عليها "والليل مُقبلٌ يَغشى الكون بدياجيه الكثيفة، ليكون هذا أمعنُ في التخفي، وأقرب إلى مواتاة الفرصة، وأدل على جراءتهم وقوة قلوبهم"[2].

فهذا عمرو ذو الكلب يتربَّصُ أعداءه فوق مرقبةٍ عاليةٍ ملساء يحارُ الطرف فيها لشدَّةِ إرتفاعها يتخفَّى بها طوال يومه بصبرٍ وجلدٍ منتظراً أنْ تحين الفرصة حتى ينقضَ على فريسته، فإذا حانت ينحدر عنها كما ينحدر الماء الصافي من غير أن يمس قلبه خوف أو جزع:

ومرقبـةٍ يحـارُ الطـرفُ فيهـا تُـزِلُّ الطيـرَ مُـشرفةِ القـذالِ

أقمـتُ بِرَيـدِها يومـاً طـويلاً ولـم أُشـرِف بهـا مِثـلَ الخيـالِ

ولـم يـشخص بهـا شـرفي ولكـن دنـوتُ تَحَـدُرَ المـاءِ الـزُلالِ[3]

ويرسم تأبط شراً صورةً جميلةً لمرقبته، فهي مرقبةٌ شاهقةٌ تعلو غيرها من المراقب، ولشدة ارتفاعها تبدو كأنّها معلقةٌ في الهواء، وإذا جَنَّ الليلُ وهو موعدُ الغارةِ نهض إليها، وسلك في مسالكها الوعرة المعقدة التي تبدو وكأنّها عجوز عليها ثياب خلقة:

---

(1) **المصدر نفسه**، 59. ابتهال: اجتهاد من غير دعاء . الرعيل: الجماعة. أوم: أقصد. طود: جبل. النحّال: ما يستنجل من الأرض أي يخرج منها. أضاميم: جماعات. عمارط: اللصوص الخبثاء. آناس: جمع ناس. والحلال: المقيمون.

(2) خليف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، ص 188.

(3) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 61. القذال: الرأس. الريد: الحرف يندر من الجبل. شرفي: بصري.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ومرقبـــةٍ، يـــا أمَّ عمـــرو طِمِـــرَّةٍ مُذَبْذَبـــةٍ فـــوقَ المراقـــبِ عَيْطَـــلِ

نهـــضتُ إليهـــا مِـــنْ جُثُـــومٍ كأنّهـــا عجـــوزٌ عليهـــا هِـــدْمَلٌ ذاتُ خَيْعَـــلِ[1]

وأمّا الشنفرى، فإنَّ مرقبته يعجزُ عنها الصيَّادُ الماهرُ الخفيفُ لِعلوها الـشاهق، ولكـنَّ الأمرَ لديه خلاف ذلك، فهو يصعد إلى ذُراها في ظُلمة الليل، فيبيت متخفياً على ذراعيه كأنّـه أرقمٌ ملتفٌ بعضَهُ حول بعض يتربصُ بفريسته، يقول:

ومرقبـــةٍ عنقـــاءَ يقـــصرُ دونهـــا أخو الضَّروةَ الرَّجِـلُ الحفـيُّ المُخَفَّـفُ

نعبتُ إلـــى أعلـــى ذُراهـــا وقـــد دنـــا مـــن اللّيـــلِ مُلتـــفُّ الحديقـــةِ أسـدفُ

فبـتُّ علـــى حـــدّ الـــذِّراعينِ مُجْـذِياً كمـــا يتطـــوَّى الأرقـــمُ المُتَعَطِّـــفُ[2]

ونلاحظ أنَّ القاسمَ المشترك في وصف المرقبة عند الصعاليك هو العلو والليـل، فأمّـا العلو، فإنّه يُمكِّنُ الصعلوك من كشف الطريق، ورؤية مسافاتٍ بعيدةٍ تساعده على وضع خطـة ناجحة لغارته، وأمّا الليل، فإنّه أمعن للتخفي، وهو في معظم الأحيـان كـان الوقـت المحبـب للصعاليك لشنّ غاراتهم.

وتحدث الصعاليك أيضاً عن الطرق الوعرة الضيقة التي سلكوها في غـاراتهم، وهـي التي تعرف "بالشِعب"، وغالباً ما كان يلجأ إليها الصعلوك لحظة فراره مـن أعدائـه لخبرتـه، ودرايته بها، وقدرته على سلوكها أكثر من غيره.

---

(1)تأبط شراً، الديوان، ص 181. طِمرة: مرتفعة شاهقة. مذبذبه: عالية شاهقة. العيطل: الطويلة السامقة. جثوم تأبط شرا: نصف الليل. هدمل: الثوب الخرق. الخيعل: قميص بلا أكمام.

(2) الشنفرى، شعره، ص 101. عنقاء: طويلة. أخو الضروة: الصياد معه كلاب ضراها للصيد. الحفيّ: غير المنتعل. نعبت: صعدت. الحيقة: الشجر الكثيف. أسدف: مظلم. الأرقم: ذكر الحيات وأخبثها. المتعطف: الملتف بعضه حول بعض.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ذلك حديث تأبط شراً عندما أغار على بَجيلة[1]، وبرفقته مُرّة بن خُليف وقد ذهبوا نُعماً وغنماً، ودَخلا بها شِعباً يستريحان ويأكلان به، ويتخفيان كذلك، فلحقت بهم بجيلة، وسدت عليهم مدخل الشعب، وخلف الشِعب هضاب صعاب، وجِمال فحُصرا وظنّ مُرّة أنّه قد هلك وارتعد قلبه من شدةِ الخوف، فأنزل تأبط شراً السكينة على قلبه، ونصب له حبائل النجاة، فقاتلوهم حتى أفلتا:

وبالشِعبِ، إذْ سَدّت بجيلةُ فَجّهُ ... ومِنْ خَلفِهِ هَضَبٌ صِعابٌ وجامِلُ

شَدَدْتُ لنفسِ المرءِ مُرّةَ حَزْمَهُ ... وقد نُصِبَتْ دون النَّجاءِ الحبائِلُ

وأخطأهُم قتلي ورفَّعْتُ صاحبي ... على اللّيلِ، لم تُؤْخَذْ عليهِ المخاتِلُ[2]

ويرسم لنا تأبط شراً صورةً رائعةً أُخرى للشِعب الذي كان يسلكه في غاراته، فهو شِعبٌ ضيقٌ وعر، صخوره متناسقة كتناسق الخِياطة في الثوب، وله جانبان ضيقان صغيران كأنّهما خِصرُ امرأةٍ نحيفةٍ:

وشِعبٍ كَشَلِّ الثّوبِ، شَكْسٍ طريقُه ... مَجامِعُ صُوحَيْهِ نِطافٌ مَخاصِرُ

وعلى الرغم من ضيق هذا الشِعب ووعورته، فإنّ تأبط شراً دخل به ليلاً من غير حاجة لدليل يَدُلّهُ على مسالكه، ولا يوجد بهذا الشعب أحد غير سيول ماء الصيف في جانبيه، يشبه وجودها في جانبيه ثوب المرأة الذي تضعه على رأسها، وأما الصوت، فلا تسمع به غير صوت القرقرة، وهو صوت اصطدام الماء بالصخر، وحتّى هذا الصوت سرعان ما يذهب؛ لأنّ هذا

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 21، ص 158.

(2) تأبط شراً، **الديوان**، ص 157، 159. فجّه: فمه. الهضب: جمع هضبه، وهي الصخرة الراسية الصلبة. جامل: جماعة الجمال الذكور المكتملة الشديدة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الماء يغور في الأرض، ولا يبقى منه غير ماء قليل صافٍ يضمحلُ هو الآخر مخلفاً وراءه بقع ماء ضحلة:

تَعسَّفتُهُ باللّيلِ، لمْ يَهدِني لهُ ... دليلٌ، ولمْ يُحسِنْ لِيَ النَّعتَ خابِرُ

لدُنْ مَطْلَعِ الشِّعْرَى، قليلٍ أنيسُهُ ... كأنَّ الطِّخا في جانبيهِ معاجِرُ

به مِنْ نِجاءِ الدَّلوِ بِيضٌ أقرَّها ... جُبارٌ لصُمِّ الصَّخرِ فيه قراقِرُ

ومُرِّنَ حتى كُنَّ للماءِ مُنتهىً ... وغادرَهُنَّ السّيلُ فيما يُغادرُ

به نُطَفٌ زُرقٌ قليلٌ تُرابُها ... جلا الماءُ عن أرجائِها فهوَ حائرُ

به سَمَلاتٌ مِنْ مياهٍ قديمةٍ ... موارِدُها ما إنْ لهنَّ مَصادِرُ[1]

لقد نجحَ الصعاليكُ إلى حدٍ كبيرٍ بنقلِ صورةِ الغارةِ التي هي محطُ فخرِهم وإعجابِهم إلى القارئ لدرجة أنَّه عندما يقرأُ وصفَهم للغارةِ يشعرُ وكأنَّهُ مُشاركٌ فيها أو يرقبها من مسافة قريبة؛ وذلك لبراعة الصعاليك بنقلهم وسردهم لأدق التفاصيل، ومجريات الغارة وأحداثها، مستخدمين بذلك أجمل الصُّور الفنيّة المُستوحاة من وحي بيئتهم وثقافتهم.

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 94، 96. الشِعب: الطريق في الجبل. شل الثوب: خياطته. شكس: ضيق وعر. مجامع: ما اجتمع من الرمل. الصوحان: وجها الجبل القائمان. نطاف مخاصر: أي قليلة صغيرة. تعسفته: سرت به على غير علم. خابر: الذي يخبر بالشيء ويدل عليه. الطخا: السحاب الرقيق. المعاجر: جمع معجر وهو ثوب تلفه المرأة على رأسها. نِجاء: جمع نجو، وهو السحاب الذي هراق ماءه ومضى. الجبار: السيل. قراقر: من القرقرة: وهي صوت اصطدام الماء بالصخر. نطف: جمع نطفه، وهي الموبهة القليلة. حائر: راجع. السملات: جمع سملة وهي البقية القديمة من الماء في حوض أو غيره.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

المبحث الثالث

وصف أدوات الغارة

مثلما اهتمَّ الصعاليك بوصف غاراتهم التي هي محطُّ فخرهم واعتزازهم ونقلهم لها ببراعة كبيرة غير تاركين جزئية منها أو ما يتعلَّق فيها إلاَّ تحدثوا عنه، فهي ميراثهم الذي خلَّفوه لكلِ فقيرٍ مظلومٍ مُشردٍ منبوذٍ في فيافي الصحراء القاحلة، وهي أيضاً سيرتهم الخالدة التي تبقى لهم بعد رحيلهم كما قال عروة " أحاديثُ تبقى والفتى غيرُ خالدِ"[1].

فلم يغفل الصعاليك الحديث عن أدوات الغارة وأسلحتها، بل دأب الشعراء الصعاليك جُهد دأبهم في وصفِ هذه الأدواتِ والأسلحة، ولا غَرو في ذلك، فهي كل ما يملكون في هذه الحياة، وكيف لا يتحدثون عنها وقد حققوا بها نصراً على أعدائهم، وانتزعوا بها حقهم في العيش من غني لا يعترفُ بذلك الحق، ونجحوا بها أيضاً بالإفلاتِ من إطباقِ فَكيّ الموتِ الذي كان دائماً يلاحِقُهم.

وقد كان اهتمام الصعاليك بهذه الأدوات لا يقلُّ عن اهتمامهم بالغارةِ نفسِها، فوصفوا "أسلحتهم المختلفة وصف المفتون بها الذي يهتم بكل أجزائها، ويحرصُ على أن يسجِلَ في حديثه عنها كل شيء فيها: لونها وشكلها و صوتها وطريقة صنعها وطريقة استخدامها وقيمتها في حياته وفعلها في أعدائه"[2].

وأستطيع القول بأنَّ الصعاليك وإنْ اهتموا بهذا الجانب مع أنّهُ جانبٌ مادي من جوانب الغارة، إلاّ أنّه كان يأخذُ أبعاداً معنويةً كبيرةً، تجذرت في نفوس الصعاليك مع معايشتهم لهذه الأدوات والأسلحة، والتي سأتطرق للحديث عنها والتفصيل في هذا المبحث من الدراسة.

---

(1) عروة بن الورد، **شعره**، ص 42.

(2) خليف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، ص 196.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعلَّ من أبرز ما تحدثوا عنه، وأكثروا من وصفه مبرزين أثره في القتال، وإعماله في أعدائهم هو السيف، وذلك لعدَّةِ أسباب، كان أهمها ما عُرِفَ عن العرب إبَّانَ تلك الفترة من افتخارٍ بالشجاعةِ، والإقدام ، وهو كلام ينطبق بشكل مباشر والوظيفة أو الحالة أو الشكل الذي يُبرزه السيف دون غيره، فباستخدام السيف نرى المقاتل يأخذ شكل المواجهة المباشرة مع عدوه، ولا نعجب إذ نعرف ضمناً ما عُرف عن الصعاليك من شجاعة وإقدام الأمر الذي جعلهم يبرزون السيف في شعرهم، ويُسهبون عنه، وربَّما أكثر من غيره.

لطالما أبكى سيفُ تأبطَ شراً النساءَ، وجعلهنَّ يَنُحْنَ على أزواجهنّ لمّا رأينهم يحتضرون أمام أعينهنَّ بعدما ضرب تأبط شراً رقابهم بسيفه الحاد على الرغم من قوتهم وشجاعتهم التي كانت كشجاعة الليوث، لكنّهم لا يملكون أنْ يفعلوا شيئاً أمام سيفه:

ويومٌ أهُزُّ السّيفَ في جيدِ أغيدٍ ... له نِسوةٌ لم تلقَ مِثلي أنكرا

يَنُحْنَ عليه وهو يَنزِعُ نفسَه ... لقد كنتَ أبّاءَ الظُّلامةِ قَسورا[1]

فنرى تأبط شراً يعرض لبطولته وشجاعته، وما ترك فِعله من أثر في نفوس الثكالى بحيث جعل تأبط شراً السيف هو المحور والسبب لِما تقدم، فيظهر لنا موقفاً أغاظ به أعداءه، جاعلاً السيف هو صانع الحدث، ومُولِّد الموقفِ.

ونرى الشنفرى في بعض أبياته يخوض في نفس ذي الغِمار، عارضاً في هذه الأبيات السيف وواصفاً له، فها هو يذكر بعض بطولات تأبط شراً، ومواقفه مُضمناً هذا الوصف الحديث المباشر عن السيف، ذاكراً وواصفاً لهذا السيف، بل ومدرجاً لبعض أسمائه، فهو يقول بأنَّ تأبط شراً إذا فزع الناس لم يفزع، بل كان رابط الجأش مِقداماً مستنداً في ذلك على سيفه الذي يصفه

---

(1) تأبط شرّا، الديوان، ص 100. الظلامة: ما تظلمه أي تطلبه عند الظالم. قسورة: من القسر والقهر، والقصور الليث أو الشديد القاهر من كل شيء.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشنفرى بأنه سيف قاطع حاد ثم يستطرد متحدثاً عن هذا السيف لنرى جُل حديثه عن وصفه، فيصفه بالأبيض من خلال قوله "كلون الملح" كما يُشير إلى أن هذا السيف جيد الصنع ذو بريق ولمعان شأنه شأن الماء عندما تهب عليه الرياح، فتقطعه مُظهراً لذلك بريقاً، ثمّ نرى سيفه يقهر كل السيوف التي تستهدف هامته، فتحيط بمنكبيه من جميع الجهات، يقول:

إذا فزعوا طارتْ بأبيضَ صارمٍ ورامتْ بما في جَفرِها ثم سَلّتِ

حسامٍ كلونِ الملحِ صافٍ حديدُهُ جُرازٍ كأقطاعِ الغديرِ المُنَعَّتِ

تراها أمامَ الحيِّ حين تشايحوا لدى مَنْكِبَيها كلُّ أبيضَ مُصلَتِ[1]

ويحدّثُنا الشنفرى أيضاً عن قُوّةِ سيفه، ومهاراته في استخدامه، مبيناً نتيجة لذلك إعماله في أعدائه، فهو يقطعُ أيديَهم، فلا يستطيعون حمل السلاح مرة أخرى، فهو سيف بتّار ما إن يستعمله الشنفرى حتى ينالَ من عدوه كل منال:

وأبيضُ من ماءِ الحديدِ مُهنَّدٌ مُجِذٌ لأطرافِ السّواعِدِ مِقْطَفُ[2]

وأمّا صفة الرجل الحقيقي بنظر السُّليك، ومن يجبُ على المرأة أنْ تسعى لوصاله هو صعلوك يُكثِرُ من قَطعِ هامات الرجال بحدّ سيفه، فهو يرى قمة الرجولة عند الرجل بأن يكون جُلّ همه خوض غِمار الغارة، وأنْ يُبلي فيها المرء بلاءً حسناً:

ولكن كُلُّ صُعلوكٍ ضَروبٍ بِنَصلِ السيفِ، هاماتِ الرجالِ[3]

---

(1) الشنفرى، **شعره**، ص 81. جفر: كناية السهام. سلت: رفعت السيف. جراز: قاطع. أقطاع الغدير: أجزاء الماء يضربها الهواء فتتقطع ويبدوا بريقها. تشايحو: جدوا. مصلت: مشهر.

(2) المصدر نفسه، ص 102. مجذ: قاطع. مقطف: قاطع.

(3) السُّليك بن السلكة، **الديوان**، ص 89.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي شكلٍ آخر من أشكالِ وصف السيف، والحديث عنه نرى عمرو ذا الكلب يذكر سيفه في إطار من المدح للذات بحيث يصور سيفه وقد صار ملازماً له جُل وقته، وحقق به نصره ومجده كوشاحٍ يُزينُ صدره:

تَمَنّـــانِي وأبـــيضَ مَـــشرفِيًا وشَـــاحَ الـــصدرِ أخلـــصَ بالـــصّقالِ[1]

ثُمّ ها هو حاجز الأزدي يرى في السيف سبيلاً ومخلصاً من ظلم يقع على قومه[2] وهـو أتـاوة كان قومه يؤدونها مرغمين لبني يشكر ذاكراً هذا السيف (المخلص)، بالـسيف المـصقول: أي المُتقنُ صنعه، الشديدُ فعله:

ستمنعنا منكم ومـن سـوءِ صُـنْعِكُم صـفائحُ بـيضٌ أخلـصتها الـصياقلُ[3]

وأمّا عمرو بن برّاقة، فنراه يصف سيفه بالشديد ذي الوقع، فتظهر هـذه الـشدة حـين تستعر المعركة والتي يصفها ويشبهها بإنسان كثير الطمع نَهم يطلب المزيد، والشاهد أن المعركة كهذا الإنسان تريد إكثار القتل، وإراقة الدماء، وتطمع في ذلك حيث يوضح عمرو بن برّاقة أن سيفه الشديد لكثرة ما قتل وأراق جعل المعركة تكتفي، ولا تطمع، كما يصف سـيفه بـالمطواع الذي لا يفارق يمينه، وهذه كناية عن إجادة ابن برّاقة التعامل مع السيف، هذا ويـرى أن مـن يحملُ هذا السيف لا بُدَّ أن يكون بارعاً، من صفاته قلة النوم كيف لا؟ وأكبرُ همـه التفكيـر بسيف قاطع يُجَنِّبُهُ المظالمَ كما يُجَنِّبُهُ إيَّاها القلبُ المتيقظُ، والحمية والإباء:

وكيف ينـامُ الليـلَ مَـنْ جُـلّ هَمّـهِ حـسامٌ كلـونِ الملـحِ أبـيضُ صـارمُ

---

(1) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 59. مشرفياً: أي منسوب للمشارف، وهي قرى للعرب تدنوا من الريف.

(2)الأصفهاني، **الأغاني**، ج 13، ص 211.

(3) المصدر نفسه، ج 13، ص 212.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

غموضٌ إذا عَضَّ الكريهةَ لـمْ يَـدعْ لهـا طمعـاً طَـوعَ اليمـينِ مُـلازمُ

متى تجمعِ القلـبَ الـذَّكيَّ وصـارِماً وأنْفَـاً حَميـاً تَجْتنبْـكَ المظـالمُ[1]

ويُصوِّرُ الشنفرى سيوف رفاقه الصعاليك بحمام الموت الذي يباغتون به أعداءهم في عُقر دارهم، وتأبى هذه السيوف أن تقتل خصومها بهدوء مختارة تقطيع رؤوسهم وشقها، مظهراً بذلك الشنفرى قوة هذه السيوف، وأثرها في أعدائهم:

بأنّا صَبَحْنا القـومَ فـي حُـرِّ دارِهِـم حِمـامَ المنايـا بالـسُّيوفِ البواتـكِ

ظللنـا نُفَـرِّي بالـسُّيوفِ رُؤوسَـهم ونَرْشُـقُهم بالنَّبـلِ بـين الـدَّكادِكِ[2]

ويصفُ صخرُ الغيّ سيفه بأنهُ قاطعٌ، وهو سيفٌ تم صقله وتجهيزه على أحسن ما يكون السيف من هيئة وفعل، إذ إنَّ هذا السيف أصبح على حاله المذكور بعد أنْ كان قبل ذلك على طبيعته الأولى، ويستمر صخر الغيّ بوصفه للسيف ليضيف إلى صفاته أنّه رقيق الشفرتين في متنه اختلاف بين موضع وآخر، ففيه أجزاء يَظهر فيها ألمع دون أخرى، ويصل صخر الغيّ الحديث بالحديث لِيُبَيِّنَ أصل سيفه، وكيف أصبح بكفه إذ لا يفارق يمينه مضمناً حديثه أنه بحث عنه في قرية تدعى "أريحا" حتى أعجبه هذا السيف، ثم ملكه، وأن هذا السيف الـذي استجلبه وانتقاه انتقاءً هو سيف له صوت إذا ما ضَرب به جسدُ العدو، وهو قاطع وباتر لعظام قبيلته:

وصـارمٌ أخلِـصَتْ خَـشيبَتُهُ أبـيضُ مَهْـوٌ فـي متنِـه رُبَـدُ

فلـوتُ عنـه سـيوفَ أريـحَ إذ بـاءَ بِكفِّـي ولـمْ أكـدْ أجِـدُ

---

(1) الجبوري، يحيى، قصائد جاهلية نادرة، بيروت– لبنان، مؤسسة الرسالة، 1982م، ص 100.

(2) الشنفرى، شعره، ص 107.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهـــو حـــسامٌ تُتِـــرُّ ضَـــرْبَتُهُ ســـاقَ المُـــذَكّي فعظمهـــا قِـــصَدُ[1]

وكما وصف الصعاليك السيف، وبيّنوا قوته، وأثره في أعدائهم، وكذلك فضله في التغلب عليهم، وصفوا أيضاً السهام وإنْ لم يكن هذا السلاح بحجم السيف لكنّه ذو أهميّة كبيرة إذ يُمَكِّنُ هذا السلاح الصعلوك من النيل من عدوه وذلك بقتله من غير مواجهة مباشـرة مـستفيداً مـن عنصر المباغتة الذي يحققه استخدام السهام .

يقول صخر الغيّ متحدثاً عن السهم كواحد من الأدوات والأسلحة عند الـصعاليك أنّـه يطلب من رفاقه أنْ يرموا عدوّهم بالسّهام المزيّنة بالريش الكثيف:

وارموهم بالصُنعِ المحشورة[2]

وهذا تأبط شراً يفتخر بصنيع سهمه المزين بالريش الكبير حيث إنّه نجح بتخليصه مـن عَدْوه سوار بن عمرو بن مالك، وقد لُطِّخَ هذا السهم بدمه مُبيناً أنَّ السهمَ يُعد سلاحاً فتاكاً لدرجة أنّه صَوَّر القتيل عندما سقط وكأنه كتلة ضخمة سقطت عليه من عَلٍ معبراً عن ذلـك بالفيـل، والذي إنّما استخدمه في تعبيره لِما يُعرف عن هذا الحيوان من ضخامة:

فقلّدْتُ سوّارَ بـن عمـروِ بـن مالـكٍ بأسـمرَ حَـشرِ القَـذَتين طَميـلِ

فَخَـرَّ كـأنَّ الفيـلَ ألقـى جِرانَـهُ عليـه، فتـىً شـهمَ الفـؤادِ أسـيلِ[3]

---

(1) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 176– 177. خشيبته: طبيعته. مهو: رقيق الشفرتين. رُبد: فيه لمع يخالف لونه. أريح: قرية في الشام. تُتِرُّ: تطن. المذكي: المسن. قِصد: كسر.

(2) المصدر نفسه، ص 192. الصنع: السهام. المحشورة: المقذذة.

(3) تأبط شراً، الديوان، ص 188– 189. أسمر حشر القذتين: سهم حشر ملزق جيد القذذ، أي سهم كبير الريش. طميل: ملطخ بالدم. الأسيل: الحاد الرقيق المرهف.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ونلاحظ أنَّ عمرو ذا الكلب كان دقيق الوصف لسهمه، فهو يصف نصله، وريشه، ويشبهها بالرمح، والشاهدُ في ذلك التشبيه أنَّ الرمحَ لا بُدَّ مائل كما هو سهم عمرو، فهو بذلك يضعنا أمام صورة، ومشهد غاية في التعبير قوامُ هذا المشهد سهم كالرمح في استقامة سيره وحتمية فتكه، وريش يتساقط إثر إصابته العدوَّ، وكذا صورة الريش، وهو يحيط بطرف السهم، ويكسوه كما يكسو الثوب لابسه.

وثجـــراً كالرِّمـــاحِ مُـــسيَّرات كُـــسِينَ دواخـــلَ الـــريشِ النـــسالِ[1]

وأمّا الشنفرى، فهو يُعنى عناية بالغة بسهمه، فهو يتخيَّرُ له الريش، ويتابع شحذه، ويهتم بمدى جاهزيته، ويذكر أنَّ هذا السهم بعد تمام صنعه يُحدثُ صوتاً عند انطلاقه كالحفيف، ويضيف بأنّه يتربص لعدوّه ليهديه هذا السهم الذي صنعه له بعناية شديدة:

وردتُ بمـــأثورٍ يمـــانٍ وضـــالةٍ تَخَيَّرْتُهـــا ممـــا أُريـــشُ وأَرصُـــفُ

أُركِّبُهـــا فـــي كـــلِ أحمـــرَ عـــاترٍ وأَقْـــذِفُ مِـــنهنَّ الـــذي هـــوَ مُقْـــرِفُ

وتابعـــتُ فيـــه البَـــريَّ حتـــى تركتـــهُ يَـــزِفُّ إذا أنفذتـــهُ ويُزَفـــزِفُ

بكفـــي منهـــا للبغـــيض عُراضـــةٌ إذا بعـــتُ خَـــلاً مـــا لـــه مُتَعَـــرَّفُ[2]

---

(1) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 60. ثجر: نصال عراض الأوساط. النسال: التي قد نسلت.

(2)الشنفرى، **شعره**، ص 103- 104. مأثور: سيف ذو أثر. ضاله: السلاح عامة والسهام خاصة. أحمر: القوس. عاتر: شديد. مقرف: غير حسن. يزف: يرن ويحدث صوتا. أنفذته: ارسلته. يزفزف: يحدث صوت أثناء انطلاقة. عراضة: هدية. بعت: مشيت وخطوت بالباع. خلا: طريق نافذ بين الرمال المتراكمة. متعرف: ما يدل عليه.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ونرى الشنفرى لشدّة اهتمامه بالسهام يصل به الأمر إلى التفصيل في ذلك، فيتطرق لعدد هذه السهام، وإن دلّ هذا على شيء، فإنّما يدلُّ حقاً على أنّ موضوع أدوات الغارة وأسلحتها كان أمراً ذا أهمية عند الصعاليك وهو موضوع هذا الباب ممّا يدحض أيّ شكٍ أو تشكيك من قبل أي ناقد يدّعي عدم أهمية هذا الموضوع أو أنّه كان يشغل حيزاً في فكر الصعاليك وثقافتهم في الغارة:

لها وفضةٌ فيها ثلاثونَ سيحفاً إذا آنستْ أولى العَديّ اقشعرّتِ [1]

وبعد هذا الحديث عن السهم، لا يمكننا أنْ نغفل وصف الصعاليك للقوس الذي لا يفترق بحال من الأحوال عن السهم، فكما أنّ للسهم أهمية نوهت إليها آنفاً، فكذا القوس الذي لا يهمله شعراء الصعاليك، يقول تأبط شراً في معرض رثائه للشنفرى:

يفرّجُ عنه غُمَّةَ الروعِ عَزمُهُ وصفراءُ مِرنانٌ، وأبيضُ باترُ [2]

إنّ تأبط شراً يذكر في هذا البيت القوس مباشرة مشيراً إلى وصفه حيث يذكر لونه الأصفر، وأنه ذو صوت يُسمعُ إذا ما أُرسِلَ منه سهم، ويتحدث تأبط شراً عن أنّ هذا القوس كان أحد الأسباب التي كانت تُسَرّي عنه إذا ما داهمه الروع في غمرة الغارة.

ويصف عمرو ذو الكلب قوسه، فيذكر أنّ هذا القوس مستقر في يُسراه، وأنّه مستجلب من عصي النشم، وينوه إلى أنّه أصفر اللون يماني الصنع مبرزاً بذلك صفة أخرى للقوس، وهو أنّه قوس ذو جوده؛ لأنّه يردُّ صناعته إلى شيبان حيث هو رجل عُرف بمهارته، وإتقانه لصناعة الأقواس، ويستأنف واصفاً صوته بأنه كصوت حنين الناقة المسنة إذا ما فارقت باقي الإبل،

---

(1) المصدر نفسه، ص81. وفضة: جعبت السهام. السيحف: اسم للسهم. آنست: أحست. العديّ: جماعة القوم يعدون للقتال راجلين. اقشعرّت: تهيأت.

(2) **تأبط شراً، الديوان**، ص 81. الغمة: الكرب والغم. الروع: الفزع. صفراء مرنان: القوس الشديدة. أبيض باتر: السيف.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وعجزت عن اللحاق بها لتقدم سنها، وهذه لا شك صورة فنية رائعة، فهو يشبه حنين القوس للسهم بعد إطلاقه، وصوته بحنين الناقة وصوتها:

وفي الشمال سَمحةٌ من النَّشم

صفراءُ من أقواس شيبان القُدَمْ

تعجُّ في الكفِّ إذا الرَّامي اعتزم

ترنّم الشارف في أُخرى النعمْ [1]

وفي صورة أُخرى، يصف لنا عمرو ذي الكلب شكل القوس، وهو مائل كميل شجرة بها حُدال، وهذا كله إنما يدلُّ على أهمية وقع السيف في نفس عمرو ذي الكلب حيث يذكر لونه الأصفر، وشكله، وصوته، ونلاحظ أن تكرار كلمة صفراء تصف لوناً تجاوز هذه الغاية، فباتت كلمة صفراء كأنّها اسمٌ من أسماء القوس:

وصفراءُ البُرايةُ عود نبعٍ كوقف العاج في ورك حُدال[2]

وأمّا صوت القوس في أُذن صخر الغيّ، فإنّه صوت شديد مرتفع يشبه صوت قوم فقدوا شيئاً، فأخذوا بالبحث عنه، مُحدّثين بعضهم البعض، ومتسائلين عن مكان ما فقدوا:

وسمحةٌ من قسي زارةَ صفراءُ هتوفٌ عِدادُها غردُ

---

(1) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 64. سمحة: قوس سهلة. النشم: الشجر. شيبان: إنسان كان يعمل القسي. تعج: تصوت. الشارف: الناقة المسنة.

(2) المصدر نفسه، ص 60. الورك: الوتر. حُدال: مدمج. العاج: الذبل.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كَـــــأنّ إرنانَهـــــا إذا رُدِمَـــــتْ هَـــزْمُ بُغَـــاةٍ فـــي إثـــرِ مـــا فقـــدوا[1]

ولكنَّ صوت قوس الشنفرى أجمل من أقواس رفاقه، فهو يشبه صوت الألحان الجميلة، وحتى لونه أيضاً يختلف، فهو أحمر بعكس الأقواس الأخرى، ويحـدّد ذلـك لكثـرة اسـتخدام الشنفرى للقوس، وتعرضه لأشعة الشمس الحارقة. يصوّرُ لنا الشنفرى أيضاً لحظة إرسال السهم عندما يمسك مقبض القوس، ثمّ يشدُّ وتره بالسهم حتّى يصل إلى أكبر قدر مـن الـشد، حيـث يرفض عندما عجز القوس، فبعدها يُقذف السهم مصدراً لذلك صوتاً شجياً:

وحمـــراء مـــن نبـــعٍ أبـــيٍّ ظهيـــرةً تـــــرنّ كإرنـــــان الـــــشجيّ وتهتـــــفُ

إذا طال فيها النـــزعُ تـــأبى بعَجـــسِها وترمـــــي بـــــذرويها بِهِـــــنّ فَتَقـــذِفُ[2]

ولشدّةِ تعلّق الشنفرى بقوسه كان لا يفارقه أبداً، بل كان ينزله الشنفرى منزلـة الرفيـق إضافة إلى القلب القوي والسيف الصارم، ويظهر لنا الشنفرى تعلقه بالقوس أكثر من غيره مـن الأسلحة، وذلك بتزيينه، ووضع محمل له، وبعيداً عن حبه للقوس يبرز لنا وصفاً مـن خـلال صورة فنية صاغها، فهو يشبه القوس بإنسان يحب آخر إذ يبين العلاقة القوية، والرابط الكبير، والحتمي بين القوس وسهمه":

ثلاثـــةُ أصـــحابٍ: فـــؤادٌ مُـــشيَّعٌ وأبـــيضُ إصـــليت وصـــفراءُ عيطـــلُ

هتوفٌ مِنَ المُلْـسِ المُتـون يُزيّنُهـا رَصَـــائعُ قـــد نِيطـــتْ إليهـــا ومِحْمَـــلُ

---

(1) المصدر نفسه، ص 177. سمحة: القوس. زارة: حي من أزد السراة. هتوف: مصوته. عدادها: صوتها. غرد: شديد الصوت. ردمت: أُنبض فيها. هزم: صوت.

(2) الشنفرى، شعره، ص102. حمراء: قوس احمرت من حرارة الشمس. ظهيرة: معينة. العجس: مقبض القوس. ذرويها: طرفاها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذا زلَّ عنهـا الـسهمُ حنّـتْ كأنّهـا مـرزّأةٌ عَجْلَـى تُـرِنُّ وتُعْـوِلُ[1]

وبعدما تقدم من حديث ووصف عن كل من السهم، والقوس، نستطيع القول بأننا نلمح شيئاً في وصفهم، وهو جام حبّهم، وإبداعهم، وتصويرهم على نقطتين وهما الصوت واللون.

ومن الأسلحة أيضاً التي استخدمها الصعاليك في غاراتهم، ووصفوها في شعرهم هي الرماح، ولكن ذكرها ووصفها مقارنة بما سبق ذكره من أسلحة وأدوات كالسيف، والسهم والقوس قليل، ولعلَّ السبب في هذا كما يقول يوسف خليف هو "قلة اعتمادهم عليها في مغامراتهم، وذلك، لأنها من الأسلحة التي يستخدمها الفرسان أكثر مما يستخدمها الرجالة"[2]، لذلك قل ذكره مقارنة بغيره.

ونجد ممن وصف الرماح في شعره السُليك بن السلكة فهو يحدثنا عن قوة رمحه، وعن أثره في أعدائه، واستطاع أن يقتل به ثلاثة من أعدائه ويغرقهم بدمائهم وأن يضرب آخر بقفاه يقال له يسار ضربة لم تلحقه برفاقه، ولكنّها لم تصب السليك باليأس، ولم توقفه عن الاستمرار، وإنما أتبع الضربات الأربعة بخامسة وسادسة استطاع أن يصيب بها شخصاً يقال له عِشار:

دمـاء ثلاثـةٍ أردت قنـاتي وخـاذفِ طعنـة بقفـا يـسار

فهـذي مـدّة، خمـس ولاءٌ وسادسـةٌ علـى جنبـي عِـشار[3]

وأمّا رماح حاجز، ورفاقه إذا اهتزت، فإنها ستستقر بأحشاء أعدائهم من القبائل؛ لأنّهم يدركون جيداً أنّ الأيدي التي تحمل هذه الرماح هي أيدي مقاتلين شجعان لا تخطئ أيديهم الهدف:

---

(1) المصدر نفسه، ص 110. مرزأة: كثيرة الرزايا. عجلى: مسرعة.

(2) خليف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، ص 202.

(3) السُليك بن السلكة، **الديوان**، ص 79. القناة : الرمح. يسار وعشار: أسماء أشخاص. الولاء: التتابع.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأســـمر خطـــيٌّ إذا هُـــزَّ عاســـلٌ بأيـــدي كُمـــاةٍ جرَّبتهـــا القبائـــلُ [1]

ويرسم لنا الشنفرى صورة مؤلمة لأثر طعنة رمحه تلك الطعنة التي يختارها الـشنفرى ببراعه وذكاء، إذ يصورها بلسعة ثعبان خطير ينشر سمَّهُ بجميع أجزاء جسد المطعون:

فطعنـــةُ خِلْـــسٍ مـــنكم قـــد تركتهـــا تمـــجُّ علـــى أقطارهـــا سُـــمَّ أســـود[2]

وهذا عُروة يحدِّثُنا عن يوم شديد صعب على أعدائه بعدما تعرضـوا لطعنـات رمـاح الصعاليك المثالية وضربات السيوف، ويبرر عروة شدة هذا اليوم بوصفه للسيوف، وللرمـاح، فهي رماح سمراء قد سُن حديدها جيداً؛ لتكون أشدَّ فتكاً:

نحـــن صـــبحنا عـــامراً إذ تمرّســـت علالـــة أرمـــاحٍ وضـــرباً مـــذكّرا

بكـــل رقـــاق الـــشفرتين مهنـــدٌ ولدن مـــن الخطـــي قـــد طُـــر أســـمرا[3]

وأمّا الرمح الذي هو جل مال عروة إضافة إلى الدرع، والمغفر، والسيف، والخيل الذي يستخلفه لورثته، فإنه أسمر من الخطي[4]، قوامٌ لا اعوجاج فيه كما وصفه في هذه الأبيات الذي نسبت له ولغيره:

ومـــاليَ مـــالٌ غيـــرُ درعٍ ومغفَـــرٌ وأبـــيضُ مِـــنْ مـــاءِ الحديـــد صـــقيلُ

وأســـمرٌ خَطِّـــيُّ القنـــاةِ مثقَّـــبٌ وأجـــردُ عريـــان الـــسَّراةِ طويـــلُ[5]

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 13، ص 208. العاسل: الرمح المهتز.

(2) الشنفرى، **شعره**، ص 90. أقطارها: جوانبها.

(3) عروة بن الورد، **شعره**، ص 67. تمرست: تعرضت. لدن: اللين المهزة من الرماح. الأسمر: الرمح.

(4) منسوبات إلى الخط وهو مرفأ بشاطئ البحرين، ديوان عروة، ص 137.

(5) عروة بن الورد، **شعره**، ص 136. أجرد عريان : يقصد الخيل.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والخيل هي واحدة من الأدوات التي استخدمها الصعاليك في الغارة على أعدائهم، وأخذوا بوصف هذه الأدوات بشعرهم، لكنه وصفٌ قصر عن وصفهم لباقي الأدوات السابق ذكرها، ولعل السبب في ذلك هو اعتمادهم بشكل كبير على أرجلهم حتى أن بعضهم كان يعدو على رجليه عدواً لا تعلق به الخيل[1]، كالسُّليك وتأبط شراً والشنفرى وغيرهم.

ونجد أكثر من تحدث عن الخيل عروة بن الورد؛ لأنه من الصعاليك الفرسان[2]، فها هو يحدثنا حديثاً ملؤه التوعد، والتحدي لبعض الأغنياء البخلاء، والذين ظنوا أنهم في هدأة بال، وليس من الوارد عندهم أن يتجرأ عليهم أحد ويغزوهم وينهب إبلهم ونعمهم أمام أعينهم، حيث يعلن لهم أنه سيغزوهم بخيل تفزع ما أمامها من إبل ونِعم معتبراً أن خيله لديها من القوة ما تمكنه من عدوه:

ستُفزِعُ بعد اليأس من لا يخافُنَا كواسِعُ في أخرى السَّوامِ المُنفَّرِ[3]

وهذا السُّليك يصف خيله بشدة ارتفاعها، وكأنها تحمل هودجاً، ويأتي السليك بنفس المعنى، ولكن بتعبير آخر حيث يبالغ بوصف ارتفاعها ليقول بأن ارتفاعها يجاوز ارتفاع ناقة عالية، كما يصفُ عُروة خيله البيضاء، وهي طويلة كثيفة الشعر عندما ترخي سدولها على جبهة الخيل، كأنها خمار يغطي وجه امرأة حسناء، وينقل صورة خيله وهي تتنفس بسرعة وكانها الكير، ولا يتبادر لذهن القارئ بأن هذه صفة سلبية في فرس الشاعر؛ لأن السليك يستطرد قائلاً في بيتٍ يليه بأن خيله حتى وهي على هذه الحالة تتفوق بعدوها وسرعتها الخيول الأخرى، وتمكن صاحبها من صيده، إن هذا لهو حال النحّام بعد أن أصابه بعض التعب والإجهاد، فكيف

---

(1) الأصفاني، **الأغاني**، ج 20، ص 335.

(2) المصدر نفسه، ص 73.

(3)عروة بن الورد، **شعره**، ص 49.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

به وبصنيعه من غير إجهاد، ولك أن تتخيل بعد ما تقدم كم كان السليك مُجيداً في وصفه فقد أتى بالتعبير والوصف بطريقة مغايرة، وغير مباشرة، وفيها حُبكةٌ تدل على براعته في الوصف، فقلما نجد عند غيره من يتطرق بذكر خيله، وهي في حالة سيئة ثم يجُبُّ في بيت يليه هذه الصفة السلبية بكل براعة واقتدار، لا بل كان لذكره حالة خيله بوضع السوء أحد أهم الركائز لوصفه الإيجابي لخيله، وبكل ما تحمله خيله من هذه الصفات السابق ذكرها يبرز السليك حاجته الشديدة لها إذا ما استعد رفاقه لغارة ما:

كأنَّ قوائمَ النحَّام، لمَّا تَحمّل صُحبتي أُصُلاً، مَحَارُ

علا قَرْماءَ عاليةً شواهُ كأنّ بياضَ غُرَّتِهِ خِمارُ

كأنَّ مناخِرَ النحّام، لمّا دنا الإصباحُ، كيرٌ مُستعارُ

ويُحضِرُ، فوق جُهد الحُضْرِ، نصّاً يُصيدُكَ، قافلاً والمُخُّ رارُ

وما يُدريكَ ما فَقْري إليه إذا ما الرَّكْبُ في نهبٍ أغاروا؟![1]

وهذه الأدوات أو الأسلحة السابق ذكرها هي أبرز ما استخدمه الصعاليك في غاراتهم، ووصفوها في شعرهم معتمدين عليها بشكل أساسي وكبير، غير أننا نجد في شعرهم حديثاً عن أسلحة أو أدوات أخرى تستخدم في حالة الدفاع كالتُرس، والدرع، والمغفر، لكنه حديث "خافت" الأنغام، وهذا طبيعي؛ لأنّ الصعاليك ليسوا في حاجة لأسلحة للدفاع عن أنفسهم؛ لأن سلاحهم في،

(1) السُّليك بن السّلكة، **الديوان**، ص 71– 73. النحام: اسم فرس السليك. أُصلاً: جمع أصيل. محار: شبه الهودج. قرماء: ناقة بها قرم في أنفها. شواة: جلد رأسه. يحضر: يرتفع في عدوه. النص: اقسى ما تقدر عليه الدابة. المخ راه: مخ العضام ذائب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدفاع الأول أو بتعبير أدق سلاح أكثرهم سرعة العدو الخارقة للعادة، وهو سلاح طالما استخدمه فأنجاهم"[1].

ومن ذلك ما رأينا من حديث عروة عن درعه ومغفره في بيت واحدٍ من مجموع ديوانه فقط، عندما ذكره من مجموع الأسلحة التي سيتركها لورثته، وقد نُسب هذا البيت له ولغيره:

ومالي مالٌ غَيْرُ درعٍ ومغْفَرٌ وأبيضُ من ماءِ الحديد صقيلُ[2]

ولعل ما يبرر ذكر هذه الأسلحة عند عُروة هو أنَّ عُروة لم يكن من الصعاليك العدّائين، وكان من الصعاليك الفرسان، وهذه الأسلحة يستخدمها الفرسان أكثر من غيرهم، ومع هذا، فإنّ هناك من الصعاليك العدّائين أو ممّن عُرِفوا بسرعة العَدْو تحدثوا عن هذه الأسلحة، لكنّه حديث خافت لا يعدو عن كونه إشارة أو ذكر سريع لطبيعة هذا السلاح وشكله، ومن ذلك نجد عمراً ذا الكلب يصفُ لنا شكل ترسه وطبيعة صنعه، فهو ترس أسمر اللون مقبب أحدب الشكل مصنوع من جلد ثور لا خلل فيه تتكسرُ عليه النصال عاجزة عن اختراقه:

وأسمرَ مُجنأً من جلد ثورٍ أصمَّ مُفللاً ظُبَةَ النصالِ[3]

وأمّا صخر الغيّ، فإنه يشير إلى ترسه إشارة سريعة مكتفياً بذكر شكله وصلابته، فهو ترس أحدب شديد، يقول:

---

(1) خليف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، ص 204.

(2) عروة بن الورد، **شعره**، ص 136.

(3) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 60. مجنأ: مقبب أحدب. أصم: لا خلل فيه. الضبة: الحد. يفللها: يكسرها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنّـــي ســـينهى عنّـــي وعِيـــدُهمُ بـــيضٌ رِهـــابٌ ومُجنَـــأٌ أجِـــدُ[1]

ومن هنا استطيع القول: إنّ وصف الأسلحة التي استخدامُها يُدلُ على قـوة وشـجاعة وإقدام حاملها، وقد كانت تستهوي قلوب الصعاليك، فيتحدثون عنها بإسهاب شديد مُبرزين مـن خلالها شجاعتهم، وإقدامهم، وجسارة قلوبهم، وأمّا الأسلحة التي يُدلُ استخدامها علـى ضـعف حاملها، ووضعه في حالة دفاع عن النفس، وحرصاً على الحياة كالترس والدرع، فإنهم كـانوا ينفرون منها.

لقد انتهج الصعاليك هذا النهج (الغارة) دون تردد أو تواني،ذلك أنهم كانوا على قناعـة بالأهداف والدوافع لهذا النهج، وهي مجموعة من القيم السامية التي آمنوا بها وكانت المحـرك لنشاطهم في طريق الغارة ومن ذلك صفة الكرم وكذلك سد الحاجة والقضاء على الفقر والجوع، ناهيك عن الثأر كإحدى القيم التي كانت إبان حقبتهم تعتبر في منظورهم إحدى القيم السامية جدا، وهي بذلك على خلاف ما يعتقد كثير من الدارسين بأنهم إنما أغاروا لغاية السلب والنهب وإراقة الدماء.

هذا إن الشعراء الصعاليك من خلال وصفهم للغارة أرادوا التأكيد على قـدرتهم علـى ترجمة ما يؤمنون به من قيم على أرض الواقع لوحدهم دون مساعدة المجتمع (القبيلة) بـاذلين من أجل تحقيق ذلك أوقاتهم وأرواحهم، ولا بُدّ أن أُشير إلى أن ما أرادوا أن يؤكدوا عليه فـي موضوع وصف الغارة تطرقوا إليه في موضوع الأدوات،ذلك أن موضـوع الأدوات لا يمكـن اعتباره موضوعا رئيسا قائماً بذاته_ وهذا ما استنتجته من شعرهم _ هذا ولا أنكر أنهم تحدثوا عن الأدوات بشكل مباشر وإن بشيء قليل.

---

(1) المصدر نفسه، ص 176.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الفصل الثاني

التشكيل البلاغي للغارة

وأدواتها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني

التشكيل البلاغي للغارة وأدواتها

إن الدارس للشعر العربي في العصر الجاهلي يلحظ منذ قراءته الأولى جمال هذا الشعر، هذه الجمالية التي اكتسبها مما به من بلاغة " فالعرب أمةٌ مفطورة على البلاغة، وقد رفع القرآن الكريم منزلة البلاغة فوق منزلتها، ومن ثم كان العرب في بحثهم عن خصائص البلاغة العربية يبحثون عن أعز شيء لديهم"[1]، فكانت البلاغة موضع تسابق وتنافس وتفاخر فيما بينهم، من أُوتيها فقط أُوتي حظاً عظيماً، ويُشار إليه بالبنان.

والشعر هو أحد أهم انعكاسات تلك البلاغة إن لم يكن أهمها على الإطلاق، يُعبر فيه الشاعر عمّا تختلجه نفسه من مشاعر الحب، والفرح، والفخر، والغضب، والرفض، والكره بما فُطر عليه من ألوان البلاغة وضروبها، ناقلاً لغيره تجربته الإبداعية بأبلغ ضروب التعبير والإرسال، فتصل تجربتُه إلى قلب المتلقي وعقله بفضلِ ما زينهُ بها من ضروب البلاغة.

ولم يختلف الشعراء الصعاليك عن غيرهم من شعراء ذلك العصر، على الرغم من اختلاف تجربتهم نوعاً ما عن غيرهم من الشعراء، فلم تكُن قضيتهم وصل محبوبةٍ تمنعت، أو مدح ثري من أجل الحصول على أُعطية أو ما شابه، وإنما تُعبر عن ظلم ونبذ تعرضوا له، فعبروا عن رفضهم لذلك الظلم والنبذ بقوة السلاح أولاً، وبعد ذلك نقل هذه التجربة شِعراً ملونيا بألوان بلاغية رُغم قساوة هذه التجربة ومخاطرها مُختارين أسهل هذه الألوان وأبسطها.

---

(1) أبو العدوس، يوسف، **مدخل إلى البلاغة العربية**،عمان–الأردن،دار المسيرة للنشر والتوزيع،2007، ص13

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإن الدارس لشعر الصعاليك عامة، والمتعلق بالغارة وأدواتها خاصةً، ليلحظُ ما يزخـرُ به من ألوان وضروب بلاغية، وظفها الشعراء الصعاليك ببراعة عالية من أجل نقل ما عـانوه وما فعلوه وشاهدوه لغيرهم في تلك الغارات والغزوات، فوظفوا من هذه الألوان والضروب مـا جاء منها على الفطرة والسليقة، وابتعدوا عما يحتاجون منها للتأني والصنعة والتكلف، لما يتنافاه هذا الأمر مع طبيعة عملهم القائم على السرعة، والمباغتة، وانتهاز الفرص.

وانَّ الناظر لطبيعة التشكيل البلاغي في شعر الصعاليك الخاص بالغارة وأدواتها عندهم ليجد جلياً أنَّ البلاغة عند الصعاليك لا تستوفي أركان البلاغة المُتعارف عليها، حيث نجـد أنَّ بعض أركان البلاغة تطغى على معظم شعرهم لِتُكوّن سِمةً أساسية من سماته كالصورة البيانية وما تشكله من عناصر كالتشبيه، والكناية، والاستعارة، وكذلك التصوير الحسي وما فيـه مـن عناصرَ كالصورة البصرية والسمعية، وأيضاً جزالة الألفاظ والإيجاز والطبـاق فهـي تـصبغ المشهد البلاغي عندهم بصبغتها.

ولعلَّ التسويغ لبروز هذه الأركان دون غيرها هو كما يرى يوسف خليف[1] ما يُـسمّى بالسرعة الفنية التي ظهرت لما كان يحيط بحياة الصعاليك من ظروف، فهم دائمو الشغل، دائبين جُل وقتهم بالتخطيط للغارة والقيام بها ، الأمر الذي استدعى أن تكون طبيعة التشكيل البلاغـي عندهم لا تتعدى الأساليب البسيطة والمباشرة.

ومن المعروف "أنَ الشعر عند الصعاليك لم يكن (حِرفة) تُقصد لذاتها، ويفرغ صاحبه لتجويدها، والوصول بها إلى المثل الأعلى الذي يستطيع معه أن يدخل حلبة المباراة الفنية ليقول لغيره من الشعراء: هأنذا، وإنّما كان الشعر عندهم وسيلة يسجلون بها مفاخرهم، أو يُنفِسون بها

---

(1) انظر: **الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي**، ص 291.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عمّا تضيق به صدورهم ... أو يدعون بها إلى منهجهم في الحياة لعلّهم يجدون من يؤمن به وينضم إليهم"[1]، مما ترتب عليه خلو شعرهم من كثير من الأساليب البلاغية التي لا تظهر إلا عند محترفي الشعر من الشعراء.

وبشكل عام أستطيع القول: بأنّ البلاغة عند الصعاليك في هذا الباب لم تكن تلك البلاغة التي يشار إليها بالبنان، وهذا بالتأكيد لم يكن ضعفاً من الشعراء أنفسهم، وإنما لِما تمّ الإشارة إليه سالفاً، وبعيداً عن الإطناب في هذا الموضوع لا بد من ذكر مسألة هامة عند الصعاليك وهي أن الصعاليك لم يكن شغلهم الشاغل الإبداع في مجال الشعر كشأن كبار الشعراء الذين ظهروا بعدهم أو إبان العهد الذي عاشوا فيه، فلم يكن الصعلوك يجد نفسه أو شخصيته كونه شاعراً، بل كان الصعاليك يحبون أن تبرز شخصيتهم كصعاليك غزاة وأن يشيع ذكرهم بين القبائل تحت هذا المسمّى، ومع هذا وذاك لا نستطيع أن ننكر أنه برز منهم شعراء كبار حقاً عرفوا صنعة الشعر، ومارسوها، وأبدعوا فيها.

وبعد ما تقدم من كلام عام أجد أنه لابد من شيء من التخصيص أو التفصيل لتبرز الصورة، وتكون أكثر وضوحاً، وإذا تناولنا السمات البلاغية في شعرهم نجد أنّ أول ما يستوقفنا موضوع الصورة البيانية وما تشكله هذه الصورة من عناصر بلاغية وظفها الشعراء الصعاليك لنقل أحداث الغارة ودوافعها ومجرياتها، وكل ما يحيط بها.

---

(1) المصدر نفسه، ص 293.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أولاً التشبيه:

يُعدُ أسلوب التشبيه من أبرز السمات البلاغية في شعر الصعاليك وخاصة المتعلق منها بالغارة وأدواتها، "فهو أهم أدوات الشاعر في تشكيل الصورة، ويعد الوسيلة الأولى التي يعمد إليها هؤلاء الشعراء في بناء الصورة البلاغية، فهو يتناسب مع واقعهم وطبيعة حياتهم"[1]، فالتشبيه لا يعدو كونه "علاقة مقارنة تجمع بين طرفين لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال"[2].

إنَّ الشاعر في أي عصر من العصور يتأثر فيما يخص التشبيه ببيئته وما تشكله هذه البيئة من عناصر، والشعراء الصعاليك حالهم حال غيرهم في هذا المجال، فقد استقوا جُل تشبيهاتهم من عناصر البيئة حولهم: كالحيوان، والإنسان، والنبات، والجماد، فهم بذلك ينقلون تجربتهم للمتلقي بأبسط الأساليب.

فيما يتعلق بعنصر الحيوان، نرى الصعاليك إذا أرادوا أن يُصوروا قوتهم وبأسهم وإقدامهم وشجاعتهم وما صنعوا بأعدائهم، نراهم يستقون صورهم من عالم الحيوان، وخاصة الحيوانات التي تحمل بطبائعها هذه الصفات، كالأسود، والذئاب، والسباع، والخيول، وأما إذا ما أرادوا أن يصوروا خور أعدائهم، وجبنهم، وفزعهم، فإنهم يشبهونهم بالحيوانات التي تحمل ذات الصفات إهانة وتصغيرا لهم، كالإبل، والبقر، والغنم... وغيرها.

---

(1)حماده، إلهام،2008، **الصورة الفنية في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن،2008، ص 191.

(2)عصفور، جابر، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1974م، ص 172.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهذا عمرو بن براقة يحدثنا عن نتائج معركة خاضها وقومه، ويصف ما آل إليه حال أعدائهم فها هم يسوقونهم كما تُساق الحسيل[1] من المرعى، ويصور لنا أيضا حال نساء أعدائهم، وما أصابهنّ من ذلٍ وهوانٍ وإرباك من شدة المعركة مشبهاً تلك النسوة بقطيع من البقر يرعى في وسط أرض موحلة تعثرت أقدامهن فيها حيث يقول في ذلك:

ونُسلِكهُم مَدَارِجَ بَطْنِ صُرٍّ إلى قَرْنٍ كما سُقْتَ الحَسِيلا

كأنَّ نِساءَهُمْ بِقَرٍّ مِرَاجٍ خِلالَ شَقَائِقٍ تَطَأُ الوُحُولا[2]

وأما فيما يتعلق بوصف الصعاليك لأنفسهم ورفاقهم نرى الشنفرى يُصور نفسه ورفاقه بالذئاب، وإنما أراد بذلك أن يُسقط ما يحملهُ هذا الحيوان من صفة الإقدام والشراسة عليه وعلى رفاقه، حيث يقول:

سَراحِينُ فِتْيانٍ كأنَّ وُجُوهَهُمْ مصَابِيحُ أوْ لَوْنٌ من الماءِ مُذْهَبُ[3]

يشبه الشنفرى في هذا البيت رفاقه الذين شاركوا معه في إحدى غاراته بالذئاب لشراستهم وإقدامهم، ويقول الشنفرى أيضاً في هذا الصدد، وهو إسقاط ما لدى بعض الحيوانات من صفات الشجاعة، لكنه هذه المرة يُسقط على نفسه الصفة دون رفاقه، حيث يصور نفسه أسداً، وهو يمشي بخُيلاء بين القوم الذين أصبحوا فيما بعد أعداءه حيث يقول:

---

(1) الحسيل: ولد البقر.

(2) الجبوري، **قصائد جاهلية نادرة**، ص 103. بطن صر وقرن:موضعان.الحسيل: ولد البقر.بقر مراج: أي مرسل في المرعى.المرج:الموضع الذي ترعى فيه الدواب.شقائق: جمع شقيقة،وهي الأرض الصلبة

(3) الشنفرى، **شعره**، ص 73.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هُـــمُ عَرفـــوني نَاشِـــئاً ذا مَخيلَـــةٍ أُمَـــشِّي خِـــلالَ الـــدّارِ كالأسَـــدِ الـــوَرْدِ[1]

وعند الحديث عن الصعلوك الذي لا يغزو نرى حديثهم لا يختلف كثيراً عن حديثهم عن أعدائهم عندما يشبهونهم بالحيوانات التي تحمل طبائع ممقوتة، فنرى عروة بـــن الـــورد يُـــشبه الصعلوك الذي لا يغزو ويقضي نهاره بإعانة نساء الحي، فيمسي وقد أعياه التعب بالبعير الذي أصابه النصب يقول:

يُعـــينُ نِـــساءَ الحَـــيِّ مـــا يَـــستَعِنَّهُ فيُمْـــسي طَليحـــاً كـــالبَعيرِ المُحَـــسَّرِ[2]

وفي بيت آخر يشبه عروة أعداءه وهم يفرون أمامه كالإبل المذعورة الخائفة، كما شبه نفسه ورفاقه بالخيل التي تطارد هذه الإبل؛ لما يحمل الخيل من صفة الإقدام وما تحمله الإبل من صفة الخوف عندما تُطارد، يقول:

سَتُفْزِعُ بَعـــدَ اليـــأسِ مَـــنْ لا يخافُنـــا كَوَاسِعُ فـــي أُخْـــرَى الـــسَّوامِ المُنَفَّـــرِ[3]

ويقول عروة أيضاً:

رَحَلْنـــا مـــن الأجبـــالِ أجبـــالِ طيِّـــئٍ نَـــسُوْقُ النِـــساءَ عُوذَهـــا وعِـــشارَهَا[4]

يشبه عروة في هذا البيت السبايا وهنَّ بين مرضعة حديثة الإنجاب، وأخرى حامل قـــد اقترب وقت وضعها بالنوق بعضها وضعت حملها وبعضها الآخر في حالة عِشار، ومـــا كـــان

---

(1) المصدر نفسه، ص 92. مخيلة:كبر.الورد:الشجاع، وتطلق ع الأسد.

(2)عروة بن الورد، شعره، ص 47. طليح والمُحسّر: المُعيى (شديد التعب).

(3) المصدر نفسه، ص 49.

(4) المصدر نفسه، ص 80.عوذها: الإبل حديثة الإنجاب.عشارها: الإبل التي اقترب وضعها،وأراد هنا النساء.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تشبيهه لهؤلاء النسوة بالنوق وهن مرضعات حديثات الإنجاب أو عِشار؛ إلا لما تحمله هذه الذوق من صفة الضعف والخور.

وهذا تأبط شراً في معرض رثائه لرفيقه الشنفرى يصف لنا هجومه على أعدائه وبيده سلاح حاد، فشبه هروبهم منه بهروب الغنم من الذئاب، كما شبه نفسه بالذئب الذي يعدو في إثر هذه الغنم الهاربة.

حيث يقول:

تَجُــولُ بِبَــزِّ المَــوْتِ فــيهِمْ كــأنَّهُمْ بِــشَوْكَتِكَ الحُــدَّى، ضَــئِينٌ نَــوافِرُ[1]

وفي بيت آخر لتأبط شراً يصف فيه هجوم أعدائه عليه لما ظنوا أنه نائم، فيشبه هجومهم عليه بهجوم السباع التي تلاحق إبِلاً وسط الوادي ، وهو تشبيه ملؤه الحركة ووضوح المشهد، وفي هذا البيت نستشعر ما كان لدى الصعاليك من خصال الشهامة والنبل التي كانوا يتمتعون بها، حيث نراهم يُقِرون بشجاعتهم رغم أنهم أعداؤهم، حيث يقول:

فَلَمَّا أَحَــسُّوا النَّــوْمَ جَــاءوا كــأنَّهُمْ سِــبَاعٌ أَضَــافَتْ هَجْمَــةً بِــسَلِيلِ[2]

في صورة أخرى يشبه تأبط شرا سقوط أحد ضحاياه بعد تلقيه ضربة قاتلة أردته أرضا، وكأن فيلا ألقى عليه جرانه فخر صريعاً، مصوراً بذلك قوة ضربته بقوة وقع سقوط الفيل بما لديه من ضخامة ووزن على عدوه، حيث يقول:

---

(1) تأبط شراً، **الديوان** ص 79. بَز:سلاح. الحُدَّى:من الحِدّة،وهو مذهب مدح.ضئين: جمع ضأن،مثل المعز والغنم. نوافر: أي نفرت.

(2) المصدر نفسه، ص 188. أضافت: أخافت.هجمة: القطعة من الإبل مابين الستين والسبعين. سليل :وسط الوادي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فَخَـرَّ كَـأَنَّ الفِيـلَ أَلْقَـى جِرَانَـهُ عَلَيْـهِ فَتَـىً شَـهْمِ الفُـؤَادِ أَسِـيلِ[1]

وهذا السُّليك بن السّلكة يحذو حذو رفاقه الصعاليك، فنراه يستقي بعض صوره الفنية من عالم الحيوان، ذلك العالم الذي ألفه كما ألفه رفاقه الصعاليك بحكم قربهم منه، فها هو يُشبّه توتر أحد رفاقه وخوفه بظبي انقض عليه طائر جارح.

رَدَدْتُ عَلَيْـهِ نَفْـسَهُ، فَكَأَنَّمَـا تَلاقَـىَ عَلَيْـهِ مِنْـسَرٌ وسَـرُوبُ[2]

وعند الحديث عن أدوات الغارة، نجدُ أن الأمر لا يختلف كثيراً، فإننا نرى الـصعاليك إذا ما أرادوا أن يعبّروا عن شكل أو صوت، أو فعل هذا الأدوات استقوا بعض تشبيهاتهم من عالم الحيوان كما هو الحال عند حديثهم عن الغارة ككل.

يقول أبو الطمحان:

بِضَرْبٍ يُزِيـلُ الهَـامَ عَـن سَـكَنَاتِهِ وطَعْـنٍ كَتَـشهاقِ العِفَـا هَـمَّ بِـالنَّهْقِ[3]

فيشبه هنا أبو الطمحان الصوت الذي ينتج عن طعنة الرمح بصوت ولد الحمار عنـدما يهم بالنهيق، وهو تشبيه مستوحى من صوت عدوه عندما يستقر هذا الرمح في أحشائه.

ويقول الشنفرى:

كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِن فَـوْقِ عَجْـسِها عَـوازِبُ نَحْـلٍ أَخْطَـأَ الغَـارَ مُطْنِـفُ[4]

---

(1) المصدر نفسه، ص 189.

(2)السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 58.

(3) لسان العرب: مادة شهق.

(4) المصدر نفسه، ص 102.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في هذا البيت يُشبهُ الشنفرى صوت سهمه عند انطلاقه واحتكاكه بالهواء حيث يسمي هذا الصوت (حفيف) وهو الصوت الصادر عن صوت حركة أجنحة النحل عندما تخطىء طريقها نحو الغار الذي تسكُنه، حيث تزداد وتيرة هذا الصوت عادةً عندما يبتعد النحل عن الغار أو يضل طريقه إليه.

وكان للخيل باعتباره أحد أدوات الغارة نصيبا من تشبيهاتهم رغم قلة اعتمادهم عليه، فها هو تأبط شرا يشبه سرعة فرسه الفائقة بسرعة العقاب عندما ينقض على فريسته، وهو تشبيه صائب، فحالة هذا العقاب حين ينقض على فريسته تشبه حالة تأبط شرا تماماً عندما ينقض على ضحيته، وهو معتلٍ هذا الفرس، يقول:

وأشْقَرُ غَيْدَاقُ الجِرَاءِ كأنَّهُ عُقَابٌ تَدَلّى بَيْنَ نِيقَيْنِ كَاسِرُ[1]

هذا "ومن هنا تأكد أن مشهد الحيوان كان يُشخص حياة الصعاليك، ويوضح جوانب كثيرة من وظائفها وقيمها بما فيها من تشرد وجوع وسلب ونهب وغزو وتربص ... ويمثل اندفاعهم وجرأتهم على الغزو"[2].

إن عالم الإنسان يُعد أحد عناصر البيئة الرئيسية التي عاش بها الصعاليك، فكان من الطبيعي أن يتأثروا به ويستقوا جزءاً من تشبيهاتهم منه، فقد عبروا عن غاراتهم وما جرى بها من خلال توظيف هذا العنصر في تشبيهاتهم، يقول تأبط شرا:

---

(1) تأبط شراً، **الديوان**، ص 82.أشقر: الفرس. غيداق الجراء: شديد الجري. نيقين: مثنى نيق، وهو الموضع الأعلى من الجبل.

(2)جمعه، حسين، **الحيوان في الشعر الجاهلي**، دمشق، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، 2010، ص 136.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

يَظَـــلُّ لَهَـــا الآسِـــي يَمِيـــدُ كأنَّـــهُ نَزِيـــفٌ هَرَاقَـــتْ لُبَّـــهُ الخَمْـــرُ سَـــاكِرُ[1]

وهنا نرى تأثر تأبط شراً بعنصر الإنسان، فهو يوظف هذا العنصر من خلال تشبيهه لحال المطعون الذي طعنه رفيقه الشنفرى في إحدى غاراته، وهو يميدُ من شدة الألم برجل ذهب عقله لشربه الخمر، حيث أنّ الجامع بين طرفي التشبيه هو الترنح لدى الرجلين، فالجريح يترنح من شدة الألم، وشارب الخمر يترنح لذهاب عقله.

وفي موضع آخر يشبه الشاعر ضيق طريق مرقبته بسد المنخرين عند الإنسان، وهي صورة فنيه أجاد فيها الشاعر بإسقاط المعنى المادي على العنصر الإنساني، فنراه أجاد اختيار المشبه به إذ كان تشبيهه للطريق الضيق بفتحتي المنخر، وهي صوره مناسبة للتعبير عن معنى الضيق يقول:

وأمْـــرٍ، كَـــسَدِّ المَنْخِـــرَيْنِ، اعْتَلَيْتَـــهُ فَنَفَّـــسْتَ مِنْـــهُ والمَنَايَـــا حَوَاضِـــرُ[2]

وفي صدد تشبيه السليك لرجل قتله حيث الدم يهراق على جسده وكأنه ثـوب مخطـط، وهي صورة معبرة لحال المقتول التي استقاها السليك من عالم الإنسان، ويقول:

كَـــأنَّ عليـــهِ لَـــوْنَ بُـــرْدٍ مُحَبَّـــرٍ إذا مـــا أتَـــاهُ صـــارِخٌ مُتَلَهِّـــفُ[3]

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 80.

(2) المصدر نفسه، ص 83. أمر:أي المرقبة.نفسّت منه:أي فرجت ضيقه.

(3) السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 83.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقول الشنفرى في إطار وصفه لوتر قوسه:

وحَمْـراءُ مِـن نَبْـعِ أَبِـيٍّ ظَهِيـرةٌ تُـرِنُّ كإرْنَـانِ الـشَّجِيّ وتَهْتِـفُ[1]

يشبه الشنفري صوت وتر القوس بعد أن يقذف من خلال السهم حيث يكون لـه رنـين وكأنه صوت غناء أو إنشاد أو تغريد، وليس غريباً أن يشبه الشاعر هذا الصوت بصوت الغناء الشجي، لعلمه بالغنائم التي سيجنيها بعد توقف هذا الصوت.

ويقول صخر الغيّ في ذات الصدد:

وسَـمْحَةٌ مِـنْ قِـسِيِّ زَارَةَ صَـفْراءُ هَتُـوفٌ عِـدَادُها غَـرِدُ

كَـأَنَّ إِرنَانَهـا إِذ رُدِمَـتْ هَـزْمٌ بُغَـاةٍ فِـي إِثْـرِ مَـا فَقَـدُوا[2]

وهنا يشبه صخر الغيّ صوت وتر القوس حيث يبدأ صوته ينخفض شيئاً فـشيئاً بعـد إطلاق السهم، وكأنه صورة قوم يكلم بعضهم بعضا بصوت مرتفع وهم يبحثون عن شيء فقدوه كإنسان معين أو خيل أو إبل.

وبما أننا في صدد الحديث عن القوس نرى أنه لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة وهـي صوت القوس" فهو صوت يفتنهم فتنة شديدة تبدو في ذلك الإلحاح الشديد علـى تـسجيله فـي شعرهم، وليس في هذا غرابة فإن هذا الصوت إيذان ببدء عملهم الذي وهبوا حياتهم له" [3].

---

(1) الشنفرى، شعره، ص 102. حفيف: صوت. عوازب: نحل ابتعدت عن المرعى. مطنف: يعلو الطنف، وهو رأس الجبل.

(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 177.

(3) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 199.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول الشنفرى في لاميته:

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ يَزِينُهَ رَصَائِعُ قَدْ نِيطَتْ إِلَيْهَا ومِحْمَلُ

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كأَنَّهَا مُرَزَّأَةٌ، عَجْلَى تَرِنُّ وتُعْوِلُ[1]

يشبه الشنفرى صوت وتر قوسه بعدما يطلق سهمه به بصوت امرأة مسرعة تصيح وتصرخ لأمر قد ألم بها، وهو تشبيه إنما استقاه الشاعر من حال ضحاياه بعد شنه غارات عليهم.

وكما تأثر الصعاليك بعالم الحيوان والإنسان تأثروا أيضا بعالم النبات كونه أحد عناصر البيئة شأنه شأن الحيوان والإنسان، فالشاعرُ ابنُ بيئته فلا بُدَّ له أن يتأثر بها، ويوظف عناصرها بتشبيهاته، يقول عروة بن الورد:

إِذا ما هَبَطْنَا مَنْهَلاً فِي مَخُوفَةٍ بَعَثْنَا رَبِيئاً فِي المرابِيءِ كالجِذْلِ[2]

ففي هذا البيت يوظف عروة النبات، فنراه يشبه أحد رفاقه الذي أوكلت له مهمة مراقبة المكان الذي نزل به الصعاليك بعد عودتهم من إحدى الغارات بأصل شجرة، والشاهد في هذا التشبيه هو تشابه الحال بين وقوف رفيقه وثباته كما الشجرة المنتصبة الثابتة.

---

(1) الشنفرى، **شعره**، ص 110.

(2) عروة بن الورد، **شعره**، ص 57. المنهل:المورد،وهو عين ماء ترده الإبل.مخوفة:أرض يُخاف منها.ربيئاً:العين والطليعة.الجذل:أصل الشجرة.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وأما تأبط شرا، فإنه يشبه الغضب البادي على عيون رفاقه بحريق الغضا الـذي يبـدو شديد الحمرة، عندما تلقى عليه الشقائق ، فقد وظف الشاعر هذا النوع من النبات وهو يحتـرق ليظهر مدى شدة غضب رفاقه الذي تتفق صورته مع صورة هذا النبات المحترق، ويقول:

مَـسَاعِرَةٌ، شُـعْثٌ كـأنَّ عُيُـونَهُمْ حَرِيقُ الغَـضَا تُلْفَـى عَلَيْهـا الـشَّقَائِقُ[1]

وهذا عمرو ذو الكلب يقول:

وَفِـي قَعْـرِ الكِنَانَـةِ مُرْهَفَـاتٌ كَـأنَّ ظُبَاتِهَـا شَـوْكُ الـسَّيَالِ[2]

نرى عمراً ذا الكلب في هذا البيت يتكئ على عنصر النبات فيشبه مقدمة سهامه لـشدة بريها وحدّتها كأنها شوك شجر السيال، حيث يحمل هذا الشوك ذات الصفات.

وأما في إطار الحديث عن السيف كأحد أهم أدوات الغارة أُوردُ ما قاله الشنفرى في ذلك:

حُسَامٌ كَلَـوْنِ المِلْـحِ صَـافٍ حَدِيـدُهُ جُـرَازٍ كَأَقْطَـاعِ الغَـدِيرِ المُنَّعَـتِ[3]

وهنا يشبه الشنفرى وميض سيفه وبريقه بأجزاء من ماء الغدير تقطعها الريـاح فيبـدو بأجزاء الماء المقطع بريق ولمعان، وهو تشبيه استقاه الشاعر من مشاهداته أثناء طوافه وانطلاقه في غاراته.

---

(1) تأبط شراً، **الديوان** ، ص 123. مساعرة: جمع مسعر، وهو الرجل الذي تحمى به الحرب وتشتعل. شُعث: جمع أشعث، وهو المنفوش الشعر. الشقائق: زهور شديدة الحمرة.

(2) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 60. الكنانة:الجعبة، مرهفات: مرقّعات. والظبة: الحدُّ. السيال: شجرة من العضاه.

(3) الشنفرى، **شعره**، ص 81.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولقد جاءت الأبيات الشعرية الخاصة بالغارة وأدواتها عند الصعاليك كما رأينا مليئة بالتشبيهات، هذه التشبيهات التي استقاها الصعاليك من وحي بيئتهم بما تشكله هذه البيئة من عناصر كالإنسان والحيوان، والنبات، والجماد، موظفين هذه العناصر لبيان ما جرى وما صنعوا في غاراتهم، وشكل هذه الأدوات وفعلها التي شُغفوا بها، كيف لا وهم بفضلها جنوا غنائمهم، وحققوا انتصاراتهم؟.

ثانياً الكناية:

تُعدُ الكناية إحدى أشكال الصورة الفنية التي ظهرت عند الصعاليك، التي استخدموها في التعبير عن المواقف التي كانوا يتعرضون لها في غاراتهم، وعما كانت تختلج به أنفسهم من مشاعر أو هموم[1].

والكناية هي: "لفظ أطلق وأُريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى ... أو هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين: حقيقة ومجازاً من غير واسطة على جهة التصريح"[2].

ومن الجدير ذكره أنَّ الكناية ظلت تتكرر في شعرهم لدرجة أنها أصبحت سمة بلاغية يتسم بها شعرهم، هذا وإنَّ استخدام الكناية لهو من أبسط أساليب التعبير عن الفكرة، فهو أسلوب بعيد عن التعقيد، كما أنه أسلوب واضح للقارئ حيث يستطيع القارئ التوصل إلى المعنى المراد ببساطه من خلال هذا الأسلوب (الكناية). وهذا كله يصح على الرغم من أن الكناية تعبير غير مباشر عن المصطلح ومعناه. يقول تأبط شرا:

---

(1) انظر: حمادة، **الصورة الفنية في شعر الصعاليك والنصوص حتى نهاية العصر الأموي**، ص 230.
(2) أبو العدوس، يوسف، **المجاز المرسل والكناية**، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، 1998، ص 141.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حَيَّـــاتِي أوْ أزُورَ بَنِـــي عُتَيْـــرٍ وكَاهِلَهَـــا بِجَمْـــعٍ ذِي ضَـــبَابِ[1]

تظهر الكناية هنا من خلال كلمة ضباب التي أراد بها الشاعر أن يعبر عن اضـطراب الموقف وعدم وضوحه في أثناء الغارة، وذلك كناية عن غبار المعركـة، ناهيـك عـن كثـرة الجموع، واشتداد وطيس المعركة، كل هذا حذا بالشاعر أن يبين لنا المشهد، وكأنه ضبابي بمـا لكلمة ضباب من معنى عدم الوضوح، واضطراب المشهد.

وفي بيت آخر لتأبط شرا أراد أن يعبر فيه عما أصابه من جوع، وضمور من غير أن يذكره بشكل مباشر، فكنى عن هذا المعنى بذكر مظاهر هذا الجوع وآثاره أو مظاهر هذا الجوع وهو نشوز الشرسوف والتصاق المِعى. يقول:

قَلِيـــلِ ادِّخَـــارِ الـــزَّادِ إلَّـــا تَعِلَّـــةً وَقَدْ نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والتَـصَقَ المِعَـى[2]

نرى الشنفرى يعبرُ عن ذات المعنى وهو الجوع في معرض وصفه لحالته وحالة رفاقه الصعاليك أثناء انطلاقهم في إحدى الغارات مُكَنِّ عن هذه الحالة بإحدى علامات الجوع أو آثاره وهي طوي الثمائل.

نَمُرُّ بِرَهْوِ الماءِ صَـفْحاً وَقَـدْ طَـوَتْ ثَمَائِلُنَـــا والـــزَّادُ ظَـــنٌّ مُغَيَّـــبُ[3]

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 69. أزور: أي أغير. كاهلها: كاهلها ورأسها.

(2) المصدر نفسه، ص 115. التعلّة: القليل الذي يُتعلل به يُسد به الرمق من الزاد. الشرسوف، أضلاع الصدر المشرفة على البطن. المِعى: كناية عن انطواء البطن وضموره.

(3) الشنفرى، شعره، ص 74.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول عروة:

عَجِبْتُ لَهُمْ إذ يَخْنُقُونَ نفوسَهُمْ ومَقْتَلُهُمْ تَحْتَ الوغى كان أعْذَرا[1]

وتبرز الكناية هنا من خلال أن القوم كما يقول عروة يبادرون بقتل أنفسهم قبل أن يُقتلوا بسيوف عروة ورفاقه، وذلك كناية عن جبنهم وهلعهم، وأن ليسَ بهم طاقة على مواجهة الصعاليك، ثم انظر ما بلغ الصعاليك من مبلغ في نفوس أعدائهم حيث بات أعداؤهم يفضلون الانتحار على الموت تحت سيوفهم.

وعبر أيضا الشنفرى عن وقت إحدى غاراته، وهو في ظلمة الليل مُكنياً عن ذلك بالسواد، فهو يحدثنا بأن أعداءهم قد باغتوهم في ظلمة الليل حيث ساعدتهم هذه الظلمة على إحداث عنصر المفاجأة من قبل من اعترضوهم وهم خثعم، حيث يقول:

فَثاروا إلَيْنا في السَوادِ فَهَجْهَجُوا وَصَوَّتَ فينا بِالصَّبَاحِ المُثَوِّبُ [2]

وهذا عمرو ذو الكلب يستخدم الكناية في التعبير عن تخفيه برأس مرقبته كي يباغت أحد ضحاياه، حيث يستخدم كلمة (ريد) وهي الحرف الناتئ من الجبل، حيث يقول:

أَقَمْتُ بِرَيْدِهَا يَوْمَاً طَوِيلاً وَلَمْ أُشْرِفْ بِهَا مِثْلَ الخَيَالِ[3]

---

(1)عروة بن الورد، شعره، ص67

(2) الشنفرى، شعره، ص 74.

(3) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 61.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول السُّليك:

كَـــأنَّ قَـــوائمَ النَحَّـــامِ، لَمَّـــا تَحَمَّـــل صُـــحبتي أُصُـــلاً، مَحَـــارُ[1]

حيث صور خيله كأن عليه هو هودجاً وفي ذلك كناية عن طول قوائمه وارتفاعه.

لقد عمد الصعاليك لاستخدام الكناية لما لهذا الأسلوب من التعبير عـن المعنـي الـذين يريدون بشكل غير مباشر، فتعبيرهم بالكناية يكون أبلغ من التعبير المباشر، ويبتعدون بذلك عن تكرار ذكر بعض المعاني كالجوع، والمرقبة، والليل، وغيرها.

ثالثاً الاستعارة:

هذا وإنّ قلة استخدام هذا الأسلوب مقارنة مع غيره من عناصر الصورة البيانيـة فـي شعر الصعاليك أو في شعر الغارة، لا يمنعني من إيراد بعض المواضع التي استخدم الصعاليك فيها الاستعارة للتعبير عن قوتهم وشجاعتهم، وعدم خوفهم من الموت.

فهذا الشنفرى يفخر بشجاعته المطلقة، التي بلغت به إلى حد لا يخشى معها أو يفزع من قدوم الموت، فالموت قد هان على الشاعر، ولِم الخشية من الموت وليس لحياة الشاعر أيّ وزن أو قيمة عند أقاربه ومن يخصونه، فلن يبكيه أحد بعد موته، فعبر الشنفرى عن عـدم مبالاتـه، وخشيته من الموت بصورة استعارية حيث جسّم الموت بصورة الإنسان، فحذف المُشبه، وترك شيئاً من لوازمه (أتتني) يقول:

---

(1) المصدر نفسه، ص 71.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذا مـــا أتَتنـــي ميتَتـــي لـــمْ أُبالِهـــا ولـــم تُـــذرِ خَـــالاتِي الـــدُّموعَ وعَمَّتـــي[1]

ويُوظف الشنفرى أيضاً الاستعارة المكنية؛ ليبين لنا مدى حذقه وقدرته على الأخذ بالثأر حيث يقول:

فَطَعْنَـــةُ خِلْـــسٍ مِـــنْكُمُ قَـــدْ تَرَكتُهـــا تَمُـــجُّ علـــى أقْطارِهـــا سُـــمَّ أسْـــوَدِ[2]

فنرى الشاعر يُشبه أثر هذه الطعنة وفعلها بعدوه (بالأفعى) المحذوف تاركاً شـيئاً مـن لوازمه (السُم) وهي صورة رائعة استطاع من خلالها الشاعر أن يُظهر لنا مدى شدة الميتة التي ألحقها بواتره.

وأما تأبط شراً فنراه يستخدم الاستعارة بصورة جميلة حيث يُجسد الموت بصورة إنسان يضحك مستبشراً بانتصار الشاعر على أحد ضحاياه عندما غرس السيف في جـسده، فحـذف المشبه (الإنسان) وترك شيئاً من لوازمه (النواجذ، الأفواه)، حيث يقول:

إذَا هَـزَّهُ فـي عَظْـمِ قِـرْنٍ تَهَلَّلَـتْ نَوَاجِـذُ أفْـوَاهِ المَنَايَـا الـضَّوَاحِكِ[3]

يُعدُ موضوع التصوير عامة والحسي خاصةً من أهم الأساليب البلاغية لما فيهـا مـن تعابير تتعدى السرد إلى المشهد بما فيه "فالتصوير فطري في الإنسان، فهو مشغوف بأن ينقـل إلى غيره ما عسى أن يكون قد سبق إليه من مشاهد أو مرَّ به من تجارب"[4].

---

(1)الشنفرى، **شعره**، ص 83

(2) المصدر نفسه، ص90

(3)تأبط شراً، **الديوان** ، ص 155.قرن: البطل الشجاع.

(4)شلبي، سعد إسماعيل، **الأصول الفنية للشعر الجاهلي**، القاهرة، مكتبة غريب، 1977، ص 84.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فنحن من خلال قراءتنا لشعر الصعاليك الخاص بالغارة وأدواتها، نجد أن الشاعر منهم في مواضع شعرية عديدة يصور مشهداً بما فيه من عنصر الشكل، واللون، والصوت، والحركة، وحقيقة أن التطرق لهذا الموضوع مهم، ذلك أن تصوير المشاهد يُعدُّ من أبلغ الأساليب لإيصال الفكرة؛ وقد جاء هذا التصوير في مواضع ليست بالقليلة في شعرهم، يقول عروة بن الورد:

لعلَّ انطلاقي في البلادِ ورِحلَتي ... وشَدِّي حَيازِيمَ المَطِيَّةِ بالرَّحْلِ

سيدفعني يوماً إلى ربِّ هجمةٍ ... يُدافعُ عنها بالعقوقِ وبالبخلِ

قليلٌ تواليها وطالبُ وِترِها ... إذا صِحتُ فيها بالفوارس والرَّجلِ

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفةٍ ... بعثنا ربيئاً في المرابىء كالجِذلِ

يقلِّبُ في الأرضِ الفضاء بكفِّهِ ... وهُنَّ مُناخاتٌ ومِرجلُنا يغلي[1]

وهنا يصف عروة إحدى غاراته، حيث يعتمد في وصفه لهذه الغارة على الصورة البصرية التي نقلها لنا، واعتمد بنقله على عنصر الحركة بشكل رئيس، فنراه يظهرُ من خلاله مدى الاضطراب، والقلق، والحذر، والحركة السريعة التي كانت في تلك الغارة، وذلك باستخدامه للأفعال (انطلاق، شدي، سيدفعني، يدافع، هبطنا، بعثنا، يقلبُ، يغلي) ويظهر لنا الشاعر أيضا مدى الاضطراب والحركة والسرعة بالتنقل بالزمن بين الماضي والحاضر، وينقل لنا مشاهد تلك الغارة بالاعتماد على عنصر الصوت من خلال الفعل (صحتُ) هذا وإنَّ براعة الشاعر في نقل الصورة يجعل المتلقي يشعر وكأنه يشاهد الغارة عياناً.

وأمَّا تأبط شراً فيقول:

---

(1) عروة بن الورد، شعره، ص 56- 57.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قعقعتُ حِضْنَيْ "حَاجِزٍ" وصِحَابِهِ وَقَدْ نَبَذُوا خُلْقَانَهُمْ وَتَشَنَّعُوا

أَطِنُّ إِذَا صَادَفْتُ وَعْثاً، وإِنْ جَرَى بِيَ السَّهْلُ أَوْ مَتْنٌ مِنَ الأَرْضِ مَهْيَعُ

أُجَارِي ظِلَالَ الطَّيْرِ لَوْ فَاتَ وَاحِدٌ وَلَوْ صَدَقُوا قَالُوا لَهُ: هُوَ أَسْرَعُ[1]

يصف لنا هنا تأبط شراً سرعته الخارقة في إحدى غاراته التي فاقت سرعة الطير، من خلال عنصر الحركة باستخدامه للأفعال التي تعبر عن هذه السرعة الفائقة (قعقعت، نبذوا، تشنعوا، صادفتُ، جرى، أجاري، أسرعُ) ويستخدم الشاعر عنصر الصوت أيضاً لإظهار سرعته (أطنُّ) ولقد أجاد الشاعرُ من خلال عُنصري الحركة والصوت في نقلها، ووصف سرعته الخارقة في تلك الغارة للمتلقي، وقد أجاد بنقلها.

ويقول السليك بن السلكة:

وعاشيةٍ رُجٍّ بِطانٍ ذَعَرتُها بِصَوتِ قَتيلٍ، وسْطَها يُتَسَيَّفُ

كَأَنَّ عليهِ لَونَ بُردٍ مُحبَّرٍ إذا ما أَتَاهُ صارِخٌ مُتَلَهِّفُ[2]

نرى السُّليك ينقل لنا إحدى الصور من إحدى الغارات حيث يذكر قطيع الإبل تملأ البطن، ويقول إن هذه الإبل خافت وتفرقت بسبب صوت قتيل كان السُّليك قد أصابه بسيفه، حيث يظهر لدينا عنصرا الحركة والصوت، فيظهرُ عنصر الحركة بقوله: (رُجٍّ، ذعرتها، يتسيف،

---

(1) تأبط شراً، الديوان ، ص 105- 107.قعقعت حضني حاجز:أي أجهدتهُ في ملاحقتي وشققت عليه فكأنما حطمت عظامه ودققتها.الخلقان: قديم الثياب.تشنّع:أي همّ بأمر شنيع. أطنُّ:من الإطنان، وهو الصوت يصدر عن الشيء الصلب إذا مرّ به الهواء مرّا سريعا.الوعث: الرمل اللين.أرض مهيع: أرض واسعة.

(2) السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 82- 83.برد: كساء من الصوف. الأسود. مُحبّر:مُوشّى. صارخ: المتفجع من الأهل.متلهف: مُتحسّر. العاشية: المواشي ترعى في العشي.رجّ: جمع رجّاء،وهي الناقة عظيمة السنام. بطان: ممتلئة البطون. يُتسيف: يضرب بالسيف.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أتاه) وعنصر الصوت بقوله: (صوت صارخ) ثم ينتقل ليصور مشهد القتيل وهو مخضب بدمائه، حيث يبرز هنا عنصر اللون وهو لون الدم.

ويقول تأبط شرا أيضاً:

جَزَى اللهُ فِتْيَانًا على العُوْصِ أَمْطَرَتْ سَمَاؤُهُمُ تَحْتَ العَجَاجَةِ بالدَّمِ

وَقَدْ لاَحَ ضَوْءُ الفَجْرِ عَرْضاً كأَنَّهُ بِلَمْحَتِهِ أَقْرَابُ أَبْلَقَ أَدْهَمِ[1]

يُصوّرُ لنا تأبط شرا أحد مشاهد غاراته جامعاً في هذا التصوير عدداً من العناصر فيها المطر الذي يذكره مجازاً، ومنها غبرةُ المعركة، والدماء المنصبّةُ على الأرض، ثمّ الشمس، ثمّ وقت الفجر بما فيه من بياض مختلط بسواد لتُكّون لنا هذه العناصر بمجموعها صورةٌ متكاملة.

وقد استخدم الصعاليك التصوير الحسي أيضاً في إطار حديثهم عن أدوات الغارة، ولكنه لم يظهر في شعرهم في هذا الصدد، كما ظهر في شعرهم الخاص بالغارة، ولعل ذلك يُعزى إلى طبيعة الموضوع، فالموضوع يدور حول أدوات معينة لا حول أحداث ومواقف، فجاء التصوير عندهم على هذا الحال، وبالتالي فالأمر لا يُعزى إلى ضعف الشعراء أنفسهم، فقد وجدنا الشعراء ذاتهم في صدد عن التشكيل البلاغي للغارة ككل يكثرون التصوير ويجيدون فيه.

يقول تأبط شرا في معرض حديثه عن سهامه ووصفها وأثرها في أعدائه.

فَقَلَّدْتُ سَوَّارَ بنَ عَمْرو بنِ مَالِكٍ بِأَسْمَرَ حَشْرِ القُذَّتَيْنِ طَمِيلِ[2]

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 206– 208. الوُص: بطن من بجيلة. العجاجة: غُبرة القتال. أقراب: خواصر. أبلق: الذي في لونه بياض وسواد معا. أدهم الأسود الخالص.

(2) تأبط شراً، الديوان، ص 188.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ففي هذا البيت تصوير واضح جميل، فهو ينقل لنا صورة سهمه ذي اللون القاتم وهو ينطلق وعليه ريش طويل يزينه فيصيب به عدوه بموضع بين الصدر والعنق، حيث يصيبه هذا السهم في مقتل فتغشى الدماء مقدمة سهمه؛ وفي هذا التصوير نرى عدة عناصر للصورة أو المشهد تظهر للقارئ، فنرى عنصر اللّون في قوله (أسمر) وحديثه عن الدماء بقوله(طميل)، حيث يظهر في مخيلة القارئ أو السامع لون الدم الأحمر ، كما يظهر عنصر الحركة من خلال انطلاق السهم منه إلى عدوه (قلدتُ)، ويظهر عنصر الصوت ضمناً من خلال احتكاك السهم بالهواء أثناء انطلاقه.

ويتابع تأبط شرا في بيت يليه مستطرداً:

فَخَرَّ كأنَّ الفيلَ ألقى جِرانَهُ عليه، فَتًى شَهْمُ الفُؤَادِ أسِيلِ[1]

في هذا البيت يكمل تأبط شرا المشهد لينقل إلى الأذهان مشهد عدوّه حينما خرَّ صريعا، وذلك من خلال استخدام التشبيه لتظهر الصورة أوضح، ونلاحظ أن الشاعر يقدم ما حقه أن يتأخر، حيث يذكر كلمة (اجرانه) قبل (عليه) فلم يقل ألقى عليه جرانه، ومن ذلك نستنتج: أن الشاعر أراد أن يلفت الأنظار ويستجلب التركيز إلى كلمة جران ذلك أن شطر البيت الثاني فيه حديث عن أن عدوه فيه صفة الرقة أو الهزال، وبما أن المراد من الكلام توضيح صورة (الجران) وهي تلقى على الرجل الهزيل ليتضح شكل مصرعه أكثر، فكان من الضروري أن تُذكر كلمة (جران) متقدمة على غيرها؛ وفي هذه الصورة نرى عنصر الحركة (خرَّ، ألقى) واضحاً.

---

(1) المصدر نفسه، ص 189.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ذلك قول الشنفرى:

ظَلَلْنَا نُفَرِّي بالسُّيوفِ رُؤوسَهُمْ وَنَرْشُقُهُمْ بالنَّبْلِ بَيْنَ الدَّكَادِكِ[1]

وهنا تصوير يبرز فيه عنصر الحركة بشكل واضح من خلال (ونرشقهم، ظللنا) كما يبرز فيه عنصر اللون حيث يظهر ذلك استنتاجا من خلال (نُفرِّي رؤوسهم) فمن المعروف، أن قطع الرؤوس ينتج عنه دم أحمر.

جزالة الألفاظ وقوتها:

إن الدارِسَ للشعر الجاهلي بشكل عام ليقف أمام معوقات تحول بينه وبين فهم هذا الشعر منذ اللحظة الأولى، وإن أول هذه المعوقات هو "صعوبة ألفاظه، واحتجاب معانيه وأحاسيسه خلف هذا المانع بحيث أصبح بيننا وبينها حاجز ...، وأصبحنا مطالبين بهدم هذا الحاجز للبحث عن معاني الكلمات ودلالاتها في المعاجم اللغوية، أو أمهات الكتب الأدبية"[2].

هذا وإن الشعراء الصعاليك جزء من هذا العصر، وبالتالي ينطبق عليهم بخصوص غرابة الألفاظ وجزالتها ما ينطبق على غيرهم في هذا العصر، فألفاظهم ومفرداتهم يصعب على الكثير فهمها، ولا نبالغ لولا ارتباطها ببعض المفردات المعروفة لدى القارئ والمفهومة، ومجيئها في سياق تعرف من خلاله ضمنا لقلنا إن مفردات الشعراء الصعاليك تحتاج إلى قاموس خاص بها.

---

(1) الشنفرى، **شعره**، ص 107. نفري: نقطع ونشق. الدكادك: جمع دكدك، وهو ما غلظ من الأرض.
(2)شلبي، **الأصول الفنية في الشعر الجاهلي**، ص 40.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وإننا إذ ننظر إلى حياة الصعاليك والظروف المحيطة بهذه الظاهرة (الصعلكة) لنجد بعض التسويغ والتفسير لما ذكرت، فالصعاليك وإن عاشوا في حقبة من الجاهلية كان فيها غيرهم من الشعراء، إلا أن طبيعة حياتهم بما يتعلق فيها من فقر، وتشرد، ونبذ خارج أسوار المجتمع (القبيلة) أضف إلى ذلك شظف العيش وخشونته؛ كل هذا أدى بمجموعه إلى أن يكون للصعاليك مذهب خاص حتى على صعيد اللفظ نفسه.

يقول تأبط شرا:

قَلِيلَ الإِتَاءِ والحَلُوبَةِ بَعْدَمَا رَأَيْتُكَ بَرَّاقَ المَفَارِقِ أَيْسَرَا [1]

نرى الشاعر في معرض رده على استنكار زوجته واستغرابها لحالة الرغد التي هو عليها بعد ما اعتادت عليه بحالة الشحوب والشظف، يعبر عن جمال شعره واهتمامه به مكنياً بذلك عن رغد العيش، وذلك باستخدامه لفظاً جزلا قوياً (برّاق) وهو لفظ يحمل أكثر من معنى ودلالة منها:(اللامع، الساحر، والخلاب، والحاد)، وكُل من هذه المعاني يكون دقيقاً بحسب ما أضيف إليه، حيث أُضيف هنا إلى المفارق وهي مفرق الشعر، فأتى هنا بمعنى المُدهّن للشعر، المُرجل.

ويقول تأبط شراً أيضا:

يَنُحْنَ عَلَيهِ وهوَ يَنْزِعُ نَفْسَهُ لَقَدْ كُنْتَ أَبَّاءَ الظُّلاَمَةِ قَسْوَرَا [2]

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 99. الإتاء: الثمر.الحلوبة: الناقة أو الشاه الحلوب.

(2) المصدر نفسه، ص 100.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعبر الشاعر في هذا البيت عن فخره بشجاعته، وذلك بقتله رجلاً قوياً يشبه في قوته الأسد، فنراه يعبر عن قوة هذا الرجل بلفظ جزل قوي (قسورا)، وهذا اللفظ يحمل أكثر من معنى تدور كلها حول الشجاعة والقوى وهي: الأسد، القوي، الشاب، الشديد القاهر لكل شيء.

ويقول أيضا:

وَقَدْ صِحْتُ فِي آثَارِ حَوْمٍ كأنَّها عَذَارَى عُقَيْلٍ أوْ بَكَارَةُ حِمْيَرا [1]

يعبر الشاعر في هذا البيت _بنشوة المنتصر_، عن فرحته بنهب عدد كبير من الإبل باستخدام لفظ (حوم) حيث تحمل دلالة هذا اللفظ القوي الجزل العدد الضخم الذي لا حد له من الإبل.

ويقول الشنفرى:

سَراحِينُ فِتْيَانٍ كأنَّ وُجُوهَهُمْ مَصَابِيحُ أوْ لَوْنٌ مِن الماءِ مُذْهَبُ

نَمُرُّ بِرَهْوِ الماءِ صَفْحَاً وَقَدْ طَوَتْ ثَمَائِلُنَا والزَّادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ[2]

يحدثنا الشنفرى في هذا البيت عن انطلاقه ورفاقه في إحدى الغارات التي كان دافعها الجوع، مشبها رفاقه بالذئاب باستخدامه كلمة جزلة قوية (سراحين) وهي تطلق على الذئاب أو الأسد، ودلالة هذه الكلمة هي الشجاعة، ثم يصف لنا بعض ملامح الطريق أثناء مسيرهم نحو هدفهم (الرهو) وهو لفظ جزل بمعنى الماء المتجمع في مكان منخفض، ويستمر الشنفرى

(1) المصدر نفسه، ص 100.

(2) الشنفرى، شعره، ص 73.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بترصيع كلامه بالمفردات الجزلة القوية حين يصف الجوع الشديد الذي هم عليه مكنياً عن ذلك بـ (ثمائلنا) وهو لفظ يدلُّ على المعدة الخاوية.

ويقول أيضا:

وَلاَ ظَمَـــأٌ يُـــؤْخِّرُنِي وحَـــرٌ ولاَ خَمْـــصٌ يُقَـــصِّرُ مِـــن طِـــلاَبِ[1]

ففي هذا البيت يؤكد الشنفرى على إصراره في المضي في الغارة، ولن يعيقه عن ذلك الظمأ والحَر والجوع، فيستخدم كلمة (خمص) وهي كلمة جزلة قوية بمعنى خلو البطن وضموره دلالة على الجوع.

ويقول عروة بن الورد:

أحاديثَ تبقـــى والفتـــى غيـــرُ خالـــدِ إذَا هُـــو أمْـــسَى هَامَـــةً فَـــوْقَ صَـــيَّرِ[2]

وهنا يستعمل عروة مفردة جزلة قوية وهي (صيَّر) ومعناها حجارة تجعل كالحظيرة زربا للغنم، وأصبحت توضع على القبور، وهي (علامة دالة عليه)، وأصبحت مع مرور الزمن بمعنى (القبر)، ومن معانيها أيضاً منتهى الشيء وغايته، والقبر يحمل هذا المعنى.

يقول السليك بن السلكة:

سَيكفيك فَقْـدُ الحَـيِّ لَحْـمٌ مُغَـرَّضٌ ومـــاءُ قـــدورٍ فـــي الجِفـــانِ مَـــشُوبُ[3]

---

(1) المصدر نفسه، ص 75- 76.ظمأ:ا لعطش زحرّ:حرّ الصيف.

(2) عروة بن الورد، **شعره**، ص 42.

(3) السُّليك بن السّلكة، **الديوان**، ص75.الجِفان: جمع جفنة،وهي أعظم ما يكون من القِصاع. مشوب: من شاب،أي خالط.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يحفز السليك ويطمئن أحد رفاقه في الغارة وقد أصابه الخوف والقلق لبعده عن أهله بأنه سوف يزيل هذا القلق ويعوضه بدل البعد لحماً (مغرضٌ) وهي كلمة جزلة تحمل معنى اللحم الطري.

ويقول عمرو ذو الكلب:

وَيَبْرَحُ وَاحِدٌ وَاثْنَانِ صَحْبِي وَيَوْماً فِي أَضَامِيمِ الرِّجَالِ[1]

ويستخدم عمرو ذو الكلب في إطار حديثه عن عدد رفاقه في الغارات التي يقوم بها، كلمة جزلة وقوية (أضاميم) وهي بمعنى الجماعات المقاتلة من الرجال.

ويقول السُّليك أيضاً:

وَاخْبُرِ الفِتيانَ أَنِّي خائضٌ غَمْرَةَ المَوْتِ، فَمَنْ شاءَ أَقاما[2]

يستخدم هنا السليك كلمة (غمرة) في إطار حديثه عن شدة الموت ومكارهه، وهو مصطلح من الجزالة بحيث يسد مسد أي مصطلح له ذات المعنى.

وعند حديث الصعاليك عما استخدموه من أدوات نراهم يرصعون حديثهم بألفاظ جزلة قوية، ومن ذلك قول تأبط شرا:

وَيَوْمٍ أَهُزُّ السَّيْفَ فِي جِيدِ أَغْيَدٍ لَهُ نِسْوَةٌ لَمْ تَلْقَ مِثْلِيَ أَنْكَرَا[3]

---

(1) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 59.

(2) السُّليك بن السّلكة، **الديوان**، ص 93.

(3) المصدر نفسه، ص 100.أنكر:من النكر، وهو الّهاء والأمر المُنكر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نلاحظ في هذا البيت تعبيري (جيد وأغيد)، والجيد هنا هو (العنق) فيريد الشاعر أن يقول أني أضرب بالسيف على العنق والأغيد هو الشخص ذو العنق الطويل المائل الحسن؛ فالشاعر هنا بهذين التعبيرين لم يذكر تعبير العنق، فهو تعبير مستهلك شائع فكان من الجزالة أن يأتي الشاعر بألفاظ جديدة وقويه وذات وقع.

كما يقول تأبط شرا أيضا:

إنَّكَ لا بَزّاً مَنَعْتَ وَلاَ يَدَاً وإنَّ السُّيُوفَ بالأَكُفِّ شَوَارِعُ[1]

وهنا تبرز كلمتي (بزّ وشوارع)، فلم يقل الشاعر سلاحاً ولم يقل يضرب به بل قال: (بزّاً، شوارع) وفي ذلك مخالفة وإلتفاف على كلمتي السلاح (ويضرب به).

ويقول الشنفرى:

وَطَعْنَةُ خِلْسٍ مِنْكُمُ قَدْ تَرَكْتُهَا تَمُجُّ عَلَى أَقْطَارِهَا سُمَّ أَسْوَدِ[2]

ويستخدم الشاعر هنا كلمة (خِلْس)، فبدل أن يقول عن نفسه: أنه شجاع وحذر قد اختصر ذلك بقول (خِلْس) حيث تفيد المعنى ذاته، وفوق ذلك تضيف إلى الكلام شيئا من الجزالة.

وهذا صخر الغيّ في إطار وصفه لصوت قوسه يستخدم لفظاً جزلاً وهو (هزم) والهزم هو الصوت المرتفع، وهي كلمة تستخدم لصوت الرعد ولصوت الفرس، فقد عبر صخر الغيّ عن الصوت المرتفع بلفظ هزم وهي مناسبة تماماً للمعنى الذي يريد، يقول:

وسَمْحَةٌ مِنْ قِسِيِّ زَارَةَ صَفْرَاءُ هَتُوفٌ عِدَادُهَا غَرِدُ[1]

---

(1) المصدر نفسه، ص 110. يدا: أي أسرتَ.

(2)الشنفرى، شعره، ص 90.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونرى الشنفرى أيضاً في إطار حديثه عن أصناف الرفاق الذين يحبذُ أن يقضي وقته إلى جانبهم وهو القلب القوي، والسيف، والقوس، نراه ينعت قوسه بلفظ جزل وهو (عيطـل) وهـو بمعنى الطويل الحسن من كل شيء، يقول:

ثَلاثَـــةُ أَصْـــحاب: فُـــؤَادٌ مُـــشَيَّعٌ وأَبْـــيَضُ إِصْـــليتٌ وصَـــفْراءُ عَيْطَـــلُ[2]

لقد أثروا الشعراء الصعاليك شعرهم بالألفاظ الجزلة والقوية، وهو سمة بلاغية اشـتهر بها الشعراء الصعاليك أكثر من غير هم من الشعراء في الحقب المختلفة حتى أن جزالة ألفاظهم وصلت إلى حد الغرابة في ذهن القارئ أو السامع، فلا نكاد نقرأ لهم شعرا إلا ونجد هذه النقطة ذات بروز وحضور، وذلك لدرجة أن جزالة الألفاظ عندهم تكاد تسد مسد جوانب بلاغية كثيرة أغفلوها في شعرهم لأسباب تحدثت عنها سالفاً، فكانت جزالة الألفاظ عندهم تُضفي على الشعر وقعا خاصا عند السامع؛ ولعل ثمة سبب آخر غير ما ذكرت كان من شانه بروز هذا الجانب في شعرهم، وهو أن شعراءهم كانوا يكتبون الشعر من وحي الشعور الخالص وبالتالي فهم يكتبون بشكل عفوي محض الأمر الذي أدى إلى أن تسري على ألسنتهم ألفاظٌ جزلة وقويـة ومناسـبة تماما لمقتضيات الموقف أو الموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر.

(1) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 64.

(2)الشنفرى، شعره، ص 110.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الإيجاز:

يعد هذا الأسلوب البلاغي من أهم السمات البلاغية التي عرف بها العرب في العصر الجاهلي، واشتهروا بها، "فقد كان العرب لا يميلون إلى الإطالة والشرح والإسهاب وكانوا يعدون الإيجاز هو البلاغة"[1]، والإيجاز كما هو معروف "اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، أو هو التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف وافٍ بالمراد لفائدة"[2]، ولم يقتصر هذا الأسلوب البلاغي على كلام العرب في العصر الجاهلي وإنما سرى إلى أشعارهم، فعبروا عن المعاني الكثيرة بلفظ قليل موصلين به ما يريدون بغير إسهاب.

ولم يكن شعر الصعاليك بعيدا عن هذا الأسلوب كونهم يمثلون جزءًا من ذلك العصر، فهو من أبرز السمات البلاغية التي اتسم به شعرهم، وكيف لا يتسم شعرهم بهذا الأسلوب وهم يعبرون فيه عن حياتهم التي قضوها في الغارة، فمن الطبيعي أن يميلوا للإيجاز كون عملهم يحتاج للسرعة، وانتهاز الفرص، والمباغتة، فحتى الإيجاز يظهر في الشكل الخارجي لقصائدهم، فمعظم قصائدهم التي وصفوا بها تلك الغارات، وما جرى بها من مواقف وأحداث هي عبارة عن مقطوعات، وهذا بحد ذاته إيجاز.

ويظهر الإيجاز في شعرهم في غيرما موضع، فهذا عروة بن الورد يستخدم الإيجاز في إطار تأكيده على استمراره بالمضي في الغارة حيث يقول:

فإنّي لمستافُ البلادِ بسربةٍ فمُبْلِغُ نفسي عُذْرها أوْ مُطَوِّقُ[3]

---

(1) مطلوب، أحمد، **أساليب بلاغية**، الكويت، وكالة المطبوعات، 1980، ص 206.

(2) أبو العدوس، **مدخل إلى البلاغة العربية**، ص 126.

(3) عروة بن الورد، **شعره**، ص 51.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويظهر الإيجاز في البيت بعد كلمة (مطوف) وتقدير الكلام مُطوفٌ في البلاد، ففي الكلام ما يدل عليه بقوله "لمستاف البلاد"، لذلك الحذف أبلغ.

وهذا الشنفرى يستخدم أيضا الإيجاز في معرض رده على زوجته التي تطالبه بعدم الذهاب في الغارة، حيث يقول:

دَعِينِي وقُولِي بَعْدُ مَا شِئْتِ إِنَّنِي سَيُغْدِى بِنَعْشِي مَرَّةً فَأُغَيَّبُ[1]

ويظهر الايجاز بعد كلمة (أغيب) فتقدير الكلام أغيب في القبر.

ويستخدم صخر الغيّ الإيجاز في إطار تذكير أبا المُثَلَّم بما فعله بقومه من قتل وسبي، حيث يقول:

أَبَا المُثَلَّمِ قَتْلَى أَهْلِ ذِي خَبَبٍ أَبَا المُثَلَّمِ والسَّبْيَ الَّذِي احْتَمَلُوا [2]

فهو أراد (يا) أبا المُثَلَّم (اذكر) قتلى ذي خبب.

وفي إطار رثاء تأبط شرا رفيقه الشنفرى وبعد ذكر فعال الشنفرى في إحدى الغارات التي شاركا بها معاً، يبدأ بذكر صفات الشنفرى، ويستخدم في هذا الوصف الإيجاز بالقصر حيث يقول:

فَيَكْفِي الَّذِيَ يَكْفِي الكَرِيمُ بِحَزْمِهِ وَيَصْبِرُ، إِنَّ الحُرَّ مِثْلَكَ صَابِرُ[3]

---

(1) الشنفرى، شعره، ص 73.

(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 185.

(3)تأبط شراً، الديوان ص 81.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فهو قلل اللفظ وكثر المعنى، فكلمة الكريم تحمل في طياتها معاني متعددة، فالكريم الذي يكرم بماله إذا شحَّ المال، ويُكرمُ الضيف ويجير الملهوف ويعطي السائل وغير ذلك مما تحمله كلمة كريم من معانٍ.

ويستخدم حاجز الأزدي الإيجاز في معرض اعتزازه بصفة الكرم وذلك في إطار حديثه لمحبوبته التي امتنعت عن وصاله حيث يقول:

سَلي عنّي إذا اغبرَّتْ جُمادى وكان طعامُ ضَيفِهم الثُمامـا[1]

وتقدير الكلام المحذوف هو (الناس) أي سلي عن صنيعي الناس إذا شحَّ الزاد.

ويقول الشنفرى:

وبَاضِعَةٍ حُمْرِ القِسيِّ بَعَثْتُهـا ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ[2]

فلم يقل يشمت مرة أخرى فحذفت(مرة أخرى) وهذا إيجاز حذف.

الطباق:

يعد الطباق من أسهل الأساليب البلاغية، فهو عبارة عن "جمع بين المعنى وضده في لفظين، نثراً كان أم شعراً" [3]، وقد ظهر الطباق في شعر الصعاليك بشكل لافت، فنرى أن الطباق يصبغ الكثير من شعر الصعاليك بصبغته الخاصة، ولعل السبب في كثرة ظهور الطباق

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 13، ص 210.اغبرت جمادى: قلّ الخير وذلك في الشتاء.الثمام: نبت ضعيف.
(2)الشنفرى، **شعره**، ص 79.
(3) أبو العدوس، **مدخل إلى البلاغة العربية**، ص 24.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في شعرهم يكمن في أن استخدام الطباق لا يعدو على كونه ذكراً لمعنيين متضادين في سياق واحد، وهذا لا يتعارض مع طبيعة حياة الصعاليك وظروفهم، فهو أسلوب بسيط الحَبكة يسهل على الشاعر الإتيان به دون تكلف أو الكثير من الصنعة، فهو أقرب ما يكون إلى أسلوب المقارنة؛ هذا وإن الطباق لكونه جمع للمتضادات (الشيء وعكسه) له أسلوب من شأنه أن يسهل على القارئ أو السامع استيعاب معنى الكلام أو الشعر، فالشيء يعرف بضده أو العكس.

وقد استخدم الصعاليك من خلال ذكر الشيء ونقيضه بعض ما كانوا يتمتعون به من صفات، وبيان إصرارهم على الغارة، وبعض الجزئيات المتعلقة بالغارة وغير ذلك فإن صورة الطباق تصف حالة الصعاليك، وما يوجد في حياتهم من تناقض.

يقول الشنفرى:

فَثَاروا إلينا في السّوادِ فَهَجْهَجُوا وصَوَّتَ فينا بالصَّباحِ المُثَوِّبُ[1]

فنرى الشاعر في هذا البيت يذكر السواد وهو ظلمة الليل من جهة ويذكر الصباح من جهة أخرى، فكان ذكره للنقيضين لإظهار وقت الغارة، وهو ظلمة الليل، وقدرتهم على الثبات والاستمرار حتى الصباح.

ويستخدم عروة الطباق في معرض رده على نهي امرأته له عن الغزو فيرد عليها متهكما بتخييرها ما بين فعلين متضادين إمّا النوم أو السهر، فيؤكد لها من خلال هذا الأسلوب إصراره على المضي في غارته.

---

(1) الشنفرى، شعره، ص74

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أقِلّي عَلَـيَّ اللـومَ يـا بنـتَ مُنْـذِرِ ونامي وإنْ لَمْ تَشْتَهي النَّـوْمَ فاسْـهَري[1]

ويقول عروة أيضا:

إذا قُلْتُ قَدْ جَـاء الغِنَـى حـالَ دُونَـه أبـو صِـبْيَةٍ يـشكو المَفَـاقِرَ أعْجَـفُ[2]

يستخدم عروة الطباق في هذا البيت لافتخاره بصفة الكرم، وذلك بذكر حالة (الغنى) هذه الحالة التي لا تدوم بسبب نقيضتها (المفاقر).

وفي موضوع آخر يطابق عروة بين كلمتي (لا أُمر ولا أحلي)، ليؤكد من خـلال هـذا التضاد ما يتمتع به من شجاعة، ونافياً جُبنَه وضعف قلبه، حيث يقول:

فلو كُنْـتُ مَثْلُـوجَ الفُـؤَادِ إذا بَـدَتْ بِـلادُ الأعَـادي لا أُمِـرُّ ولا أُحْلَـي[3]

وأما تأبط شرا فنراه في معرض رثائه لرفيقه الشنفرى يستخدم الطباق بمقارنتـه بـين صفات يحملها رفيقه الشنفري، وأخرى بعيدة عنه، فنرى الطباق بين كلمتي (مستكثرا ومقـلا) مستكثرا من الجميل ومقلا من الفحشاء. يقول:

قَضَى نَحْبَـهُ مُـستَكْثِراً مِـنْ جَمِيلِـهِ مُقِلاً مِـن الفَحْـشَاءِ، والعِـرْضُ وَافِـرُ[4]

ويقول الشنفرى في وصفه لخيله.

---

(1) عروة بن الورد، شعره، ص 41.

(2) المصدر نفسه، ص 50. أعجف: فقير. ابو صبية: ابو عيال.

(3) المصدر نفسه، ص 55. مثلوج: ضعيف.

(4) تأبط شراً، الديوان، ص 81.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولاَ عَيْبَ في اليَحْمُـومِ غَيْـرُ هُزالِـهِ عَلَـى أَنَّـهُ يَـوْمَ الهِيـاجِ سَـمِينُ[1]

ويظهر الطباق في كلمة (هُزال) و(سمين)، ولعل الشاعر من خلال هذا التناقض في حالة خيله التعبير عن حياته التي يقضيها بين هاتين الحالتين الهزال والسُمنة.

وتعتبر هذه الأساليب البلاغية التي تحدثت عنها قوام البلاغة الخاصة في شعر الغـارة، وقد صبغت شعرهم الخاص بالغارة بصبغتها الخاصة حتى أصبحت سمة من سـمات شـعرهم البلاغية، حيث اعتمد عليها الشعراء الصعاليك بشكل أساسي للتعبير عـن أهـدافهم وإيـصال أفكارهم، ونقل أحداث حرفتهم (الغارة) وما صنعوا بها للمتلقي بأسرع الأساليب وأبسطها.

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن هناك أساليب بلاغية قد قلت في شعرهم بـشكل ملفـت كحسن التعليل، وتأخير ما حقه أن يتقدم... وغيرها، ولعل السبب في ذلك هو ما تحتاجه هـذه الأساليب من صنعة وتجويد وتعمق واحتراف للشعر، وهي عناصر من الصعب توفرهـا عنـد الصعاليك نظراً لطبيعة حياتهم وظروفهم كصعاليك.

ومن حُسن التعليل، ما قاله صخر الغيّ:

ذَلِـكَ بَـزِّي فَلَـنْ أُفَرِّطَـهُ أَخَـافُ أَنْ يُنْجِـزُوا الَّـذِي وَعَـدُوا[2]

ويظهر حسن التعليل في عجز البيت، حيث يعلل الشاعر سبب حمله الدائم للسلاح وهو خوفه من أن ينجز أعداؤه تهديدهم له بالقتل.

---

(1)الشنفرى، شعره، ص 125. اليحموم: اسم فرس الشنفرى.

(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 178. بَزّي: سلاحي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأيضا من الجوانب البلاغية التي قلت هو تأخير ما حقه أن يتقدم ومن ذلك قول السليك بن السلكة:

دِمـــــاءَ ثلاثـــــةٍ أَرْدَتْ قَنَـــــاتِي وخـــــاذِفُ طَعْنَـــــةٍ بِقَفَـــــا يَـــــسَارِ[1]

فلم يقل أردت قناتي دماء ثلاثة، فقدم ما حقه أن يتأخر، فهذه الصيغة هي الأصل ويكون لها الأولوية عادة، لكن في هذا الموضع ارتأ الشاعر أن تكون الصياغة على هيئة أخرى مما خدم مقتضى البلاغة.

تُعدّ أدوات الغارة جزءاً لا يتجزأ من موضوع الغارة ككل، وبناءً عليه فإنّ حديث الباحث عن البلاغة في شعر الغارة كان أكثر اتساعاً مقارنة بالحديث عن البلاغة في شعر أدوات الغارة، لذا فمن الطبيعي أن يخبوا وميض البلاغة عند الحديث عن الأدوات، وهذا كلام نورده من باب المنطق السليم.

لقد لاحظ الباحث أن التشكيل البلاغي لشعر الأدوات يكاد يكون محصوراً في سمتين (التشبيهُ وجزالة الألفاظ) أما باقي الأركان، فنجدها قليلة إذا ما قارنها بالتشبيه وجزالة الألفاظ، ولعل ثمة سبب آخر غير ما ذكرت ببداية كلامي كان هو الدافع لمثل هذه النتيجة، وهو طبيعة الموضوع نفسه فعند الحديث عن أدوات الغارة نجده موضوعاً ضيق الأفق فلا يجد فيه الشاعر متنفساً كبيراً وسعة كافية يوّظف فيها فنّهُ البلاغي.

فقد كان الحديث عن أدوات الغارة عند الصعاليك محصوراً في نقاط ضيقة، لا تعدو على كونها وصف شكل هذه الأدوات أو لونها أو وظيفتها مع التطرق لبعض الجزئيات البسيطة

---

(1) السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 79.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كتوضيح بعض التفاصيل الخاصة بالأداة كالقول مثلا: إن السيف حاد الشفرتين أو التطرق لأسمائه المختلفة كأن يقال عنه المهند أو المأثور، أو الحديث عن طبيعة السهم وكيفية ترصيعه وصنعه وكذا المراوحة باستخدام أسمائه كأن يقال عنه أحيانا النبل أو سيحف، وكذا عند الحديث عن الرمح أو غيره.

وأرى أن الجوانب البلاغية التي قدمت لها سالفا هي قِوام البلاغة فيما يتعلق بشعر الغارة وأدواتها، وثمة وجوه بلاغية تكاد تكون خلت منها أشعارهم الخاصة بأدوات الغارة مثل: التورية، والجناس، والمجاز، والتصريع، ورد الصدر على العجز، والمقابلة،... وغيرها من الجوانب الأخرى، ويعزى السبب كما قلت سابقا لما تحتاجه هذه الأساليب من تأني وصنعة وتعمق وإعمال للفكر، وهذا ما يتنافى مع طبيعة حياة الصعاليك.

وبعد ما تقدم أقول: بأن الشعراء الصعاليك يُعدّون من أقوى شعراء العربية منذ وقتهم وحتى يومنا هذا، وبما أن البلاغة من أهم ركائز الشعر الجزل، وأستطيع القول أن شعر الصعاليك فيما يتعلق بالغارة وأدواتها كان على شيء كبير من البلاغة، وذلك بالاعتماد على ما تقدم بأنهم من شعراء العربية المتميزين، أقول ذلك على الأقل بالاعتماد على ما توفر من مراجع حول شعر الصعاليك.

ونستطيع القول بأن نشاط شعراء الصعاليك إنما يختزل في أمرين رئيسيين هما: ممارسة الغزو والإغارة، وقولهم للشعر، فلا غرو أن يتميز شعراء الصعاليك في هذا المجال (قول الشعر) وكذا البلاغة على حد سواء، ومع هذا نقول بأن البلاغة عندهم لم تكن على إطلاقها، فلم أعنِ بكلامي أنهم فاقوا غيرهم في مجال البلاغة، وإنما كانوا كغيرهم من الشعراء

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في الحقب المختلفة، فكانوا مثلهم يجيدون من جهة، ومن جهة أخرى كان عليهم بعض المآخـذ، ومن ذلك إغفالهم أركانا بلاغية رئيسية، وقد فسرت سبب ذلك سالفا بشكل يكفي لتوضيح الفكرة.

ومع أن الغارة تُعدُّ أولى أولويات الصعاليك، ونحن نعلم ما في هذا المجال وما يحيط به من حيثيات، ومنها: أن هذا المجال (حياة الغارة) كان يأخذ غالبية وقتهم؛ أقول مع هذا استطاعوا ترصيع شعرهم بكم من البلاغة يجعلني أقول بأن الشعراء الصعاليك كانت البلاغة واضحة في شعرهم وظاهرة بشكل لا يمكن إنكاره.

وختاماً أقول: إن التشكيل البلاغي للغارة وأدواتها لم يكن بالمنتقد سـلبيا، ولا بالمبـالغ بالثناء عليه من قبل النقاد أو النخب الأدبية، فقد جاء بشكل يكفي للقول بأن شعرهم كان بليغـا، وهو وصف لا يقلل من قيمة شعرهم أو يحط من شاعريتهم، وكذلك لا يطعن في بلاغتهم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

الغارة وموضوعات القصيدة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

الغارة وموضوعات القصيدة

لقد عمد الشعراء الصعاليك في شعرهم إلى التطرق المباشر للجزئيات، والكليات التي تتعلق بالغارة نفسها، وذكر ما فيها من مواقف وأحداث، وقد استخدموا أسلوب السرد المباشر للتعبير عن ظاهرة الغارة التي ارتبط اسمهم بها، فكان منهم أن أعطوا هذا الموضوع جُلّ اهتمامهم من خلال شعرهم لدرجة أن القارئ لشعرهم يكاد يظن بأن شعر الصعاليك لم يحوِ في ثناياه موضوعات، ولو جزئية غير موضوعهم العام (الغارة)، وقد جاء شعرهم في معظمه يتحدث عن الغارة أو ما يتعلق بها بشكل مباشر: كحديثهم عن حيثيات الغارة من دوافع وغيرها، وكذا عن أدوات الغارة، سواء أكان وصفاً لها أو لدورها أو ما شابه، ومن ذلك أيضاً التفصيل عما يحدث في الغارة وما يتمخض عنها من نتائج، فكان شعرهم في شكله العام يركز على الكثير من المواضيع التي لها ارتباط بالغارة، سواء من قريب أو من بعيد، ومن هذه الجزئيات مثلا: المرأة وعلاقتها بالغارة وصفات الشاعر الصعلوك. لكن هذه ليست جزئيات، بل هي في صميم موضوع شعر الغارة، ومرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، ومن هنا ارتأيت أن أُفرد لهذه المباحث مجالا خاصاً؛ لتوضيح ما يحيط بها من حيثيات، ستتضح من خلالها ما ذكرته من ارتباطها الوثيق بالغارة.

ومما يجدر ذكره أن شعراء الصعاليك كانوا من خلال استخدامهم لهذه العناصر في شعرهم، يرمون إلى التعبير عما يجول في خاطرهم، وإيصال ما يريدون من أفكار، ومن هذه العناصر المرأة وصفات الشاعر نفسه إذ استقرّ في ذهني أنْ أجعل لهما فصلاً خاصا في رسالتي؛ لأهمية هذا الموضوع،وارتباطه الوثيق كما قلت سالفا بالغارة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأول

الغارة والمرأة

تحتل المرأة مكانة خاصة في الشعر العربي بمعظمه، فلا يكاد يخلو غرض من أغراضه إلا وللمرأة نصيب منه، فقد حضرت عند غالبية الشعراء، ولكن حضورها يختلف من غرض إلى غرض، ومن شاعر لآخر، والشعراء الصعاليك حالهم حال غيرهم من الشعراء، فقد كان للمرأة حضور في شعرهم، لكنه حضور يختلف نوعا ما عن غيرهم من الشعراء، فقد حضرت المرأة بصور متنوعة ومتشابهه في الوقت نفسه حضورا ينسجم مع حياة الصعلوك وحرفته.

وقد ظهرت المرأة في حياة الشاعر الصعلوك من مواقع مختلفة ، فقد كانت المرأة الزوجة، والمرأة الحبيبة، والمرأة السبية، والمرأة التي تمثل نساء الأعداء، والمرأة المُجيرة، والمرأة المستشارة أو الناصحة، والمرأة الرافضة للصعلوك شكلا ومنهجا.

وسأتناول في هذا المبحث أبرز صور المرأة المتعلقة أو المرتبطة بالغارة.

1. المرأة العاذلة:

لقد كان للمرأة حضورا بارزاً في حياة الصعلوك، وكانت تطل علينا المرأة في شعرهم بصور مختلفة، خاصة في شعرهم المتعلق بالغارة، ولعل أبرز هذه الصور هي صورة المرأة العاذلة، التي لعبت هذا الدور في شعرهم إما زوجة، وإما حبيبة، ولعل ما جعلني أجمع بين الزوجة والحبيبة في إطار واحد هو اتصال"الحبيبة اتصالا وثيقا بهذه الزوجة، فالقسمات المشتركة بينهما تجعل من الصعوبة بمكان على الباحث إفرادها"[1]، ولعل ما جعل إفراد الزوجة والحبيبة غير ممكن هو أن كثيراً من الشعراء الصعاليك"يشيع في أشعارهم التغزل بالزوجة على

---

(1) المطيري، خالد منصور منصور، **الآخر في شعر الصعاليك**، رسالة ماجستير،كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2005، ص 18.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أنها حبيبة، ومن هنا تأتي صعوبة التمييز بين هذين النمطين في شعرهم"[1]، وقد أشار إلى هذا عبد الحليم حفني في كتابه شعر الصعاليك منهجه وخصائصه[2]. وقد تكون هذه المرأة سواء أكانت زوجة أم حبيبة رمزا سعى الشاعر من خلاله إلى تبرير فلسفته وترويج منهجه في الصعلكة؛ ولإظهار شجاعته، وعزمه، وإنما نقول رمزا؛ ذلك أن هذه المرأة التي يستحضرها الشاعر، ويتمثل وجودها قد تكون فردا، أو قبيلة أراد الشاعر إسقاط أفكاره عليها،أو إيصال رسائله وأفكاره إليها، ذلك كله من خلال هذا الرمز (المرأة).

وعند الدخول في صميم الموضوع، فإننا نتحدث عن دور الزوجة، أو الحبيبة كعاذلة، ونستطيع القول: إنّ دور المرأة كعاذلة لم يأخذ صورة واحدة، فقد كانت العاذلة تلوم الصعلوك على ممارسة الغزو نفسه (الغارة) هذا من جهه، ومن جهة أخرى تلومه على كثرة إنفاق ما يحصل عليه من غنائم على الفقراء المعدمين، ومن جهة ثالثة تلومه على عدم إدراك الثار لأحد ذويها. ويطالعنا في هذا الصدد صورة طريفة للعاذلة،ومغايرة تماما لهذه الصور، وهي صورة العاذلة المُحرِّضة على الغزو والغارة.

وأول ما يطالعنا من صور العاذلة هو لومها للصعلوك، ومحاولة ثنيها له عن الغزو والغارة، وكثيرة هي الأبيات التي تحوي هذا المضمون، ومن ذلك ما ورد في شعر عروة بن الورد من لوم زوجته ونهيها له عن الغزو حيث يقول:

أقِلّي عَليّ اللومَ يا بنتَ مُنذرِ ونامي وإنْ لم تَشتَهي النومَ فاسهري

ذريني ونَفسي أمَّ حسّانَ إنّني بها قبلَ ألا أملِكَ البيعَ مُشتَري

---

(1) كفافي، منذر ذيب، **صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي**، الأردن، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، 2009، ص 63.

(2) حفني، **شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه**، ص 329.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أحاديثَ تبقى والفتى غيرُ خالدِ إذا هو أمسَى هامةً فوقَ صَيرِ

ذريني أطَوِّفْ في البلادِ لعلَّني أُخَلِّيكِ أو أُغْنيكِ عن سُوءِ مَحْضَرِ

فإنْ فازَ سَهمٌ للمَنيَّةِ لم أكنْ جَزُوعاً وهل عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ

وإنْ فازَ سهمي كَفَّكُمْ عن مقاعدٍ لكم خَلْفَ أدبارِ البيوتِ ومَنظرِ

أبى الخفضَ مَنْ يَغْشاكِ مِنْ ذي قرابةٍ ومِنْ كلِّ سوداءِ المعاصمِ تعتري[1]

يوظف عروة هنا كثرة لوم زوجته ونهيها له عن الغزو والغارة؛ ليبين فلسفته تجاه الحياة والموت، وتجاه فكرة الخلود أيضا، هذه الفلسفة التي يستقيها عروة من الغارة وما ينتج عنها من نصر وغنائم ومن موت أيضا، يبدأ عروة بالطلب من زوجته أن تُقلَّ عليه كثرة اللّوم؛ فكثرة اللّوم، أو قلّته لن تثني عروة عن غزوه وغاراته، ويطلب منها كذلك أن تذره ونفسه، فهذه النفس قد باعها عروة، واشترى بها مجدا يخلد ذكره بعد موته، كما يطلب منها مرة أخرى أن تتركه ينطلق في غاراته، فانطلاقه في هذه الغارات سيعود عليها بالخير والمنفعة، فإن مات وليس عن ذلك من متأخر" فسوف يُخلِّيها وشأنها، وإن سلم وغنم كفَّها عن القعود خلف أدبار البيوت تسأل الناس، ويؤكد لها أمراً آخر وضررا يحلُّ بها إنْ هو استسلم للومها ونهيها، وقعد عن الغزو، أنّه قد يطرق بابها فقير وذو قرابة ويسألها فلا تجد ما تصلهم به.

وفي موضع آخر تعود زوجة عروة محاولة ثنيه عن غزوه، وذلك بتخويفه من الأعداء، ومن الموت الذي ينتظره على أيديهم؛ لعله يتراجع، فيسرها تراجعه، وإقامته عندها، فيرد عليها مستهجنا قولها: (ولم تدرِ أنّي للمُقام أُطوِّفُ) فهو من أجل هذه الإقامة التي قوامها الغنى الذي من خلاله يكفها عن حاجة الناس، وإجابة من يطرق بابه من الأقارب والفقراء المعدمين.

---

(1) المصدر نفسه، ص 41- 45. ابنت منذر: امرأته سلمى. أم حسان: كنية امرأته. الصير: القبر. الخفض: الدعة ولين العيش. المعاصم: جمع معصم: وهو موضع السوار من اليد. تعتري: تأتي طالبة المعروف.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويعود عروة إلى موضوع عذلها الرئيس وهو تخويفه من الموت، الذي لم يعرف يوما طريقا إلى قلب عروة، أو قلوب رفاقه الصعاليك، فيرد عليها بكلام منطقي، ومن رحم واقع الحياة، بأن الموت هو مصيب كل إنسان سواء في الغارة أم في المقام، بل حتّى إنّه قد ينجو منه الغائر، ويقع في شباكه المقيم، ويستمر عروة بتأكيد أهمية القيام بالغارة لعاذلته بأنه حتّى لو سمع كلامها، واكتفى بما حصل عليه من المال، فسوف يحول بينه وبين هذا المال رجل فقير هزيل ذو عيال تربطه به صداقة وقرابة أصابته خطوب ذهبت بماله، وتركته فقيرا هزيلا، فمن أجل ذلك سيغير ويقطع المسافات البعيدة بسربه من الصعاليك؛ لعله يبلغ مراده، فيُعذر أو يظلّ سائراً في البلاد.

يقول عروة:

أرى أمَّ حَسَّانَ الغداةَ تَلُومني ... تُخَوِّفُني الأعداءَ والنَّفْسُ أخْوَفُ

تقولُ سُلَيْمَى لو أقَمْتَ لَسَرَّنا ... ولَمْ تَدْرِ أنّي للمُقام أطوَّفُ

لَعَلَّ الذي خَوَّفْتنا من أمامِنا ... يُصادِفُهُ في أهْلِهِ المُتَخَلِّفُ

إذا قُلْتُ قَدْ جاء الغِنى حالَ دُوْنَه ... أبو صِبْيَةٍ يشكو المفاقِرَ أعْجَفُ

له خَلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحَقُّ دونها ... كَريمٌ أصابَتْه خُطوبٌ تُجَرِّفُ

فإنّي لمستافُ البلادِ بِسُرْبَةٍ ... فَمُبْلِغُ نفسي عُذْرَها أو مُطَوِّفُ[1]

(1) المصدر نفسه، ص 50.أم حسان: امرأته. المفاقر :جمع فقر.أعجف: هزيل.خلّة: حاجة. تُجرّف: تهزله وتجرف ماله. مستاف: من المسافة. المطوف: الكثير الجولان والسير في البلاد.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي موضع غيرهما لعروة بن الورد يؤكد فيه لعاذلته التي تلومه كما يبدو كثيرا، أمرا عظيما لديه وصفة تجلب له ذكرا، وتخلد اسمه في صفحات التاريخ، ألا وهي صفة (الكرم)، هذه الصفة التي يدرك عروة تمام الإدراك أنّه لولا كثرة هذه الغارات لما حصل عليها، ونقيض هذه الصفة لا تعرف طريقا إلى قلب عروة، فإنْ أتاه رجل فقير يسأله، ولم يجد عنده ما يقيته ، فلو أفنى حياته كلها ما استطاع أن يمحو هذا العار، وهذه الملامة التي حلّت به جراء ذلك، فمن هذا المنطلق هو يغير،وعندما تشتد المعركة، ويشتد ضرب الرماح نجده صاحب رأي جيد، وصاحب حيلة وحذر حتى يتمكن من الحصول على غنائم هذه الغارة، وبهذا يرد على عذل زوجته المستنتج ضمنا حيث تلومه على الغارة، وكثرة الغزو.

يقول:

إذا ما فاتَني لَمْ أَسْتَقِلْهُ حَياتي والملامُ لا تَفُوتُ

وَقَدْ علِمَتْ سُلَيْمى أنَّ رأيي ورأيَ البُخْلِ مختلفٌ شتيتُ

وأنّي لا يُريني البُخْلَ رأيٌ سواءٌ إنْ عطِشْتُ، وإنْ رَوِيتُ

وأنّي، حينَ تَشْتَجرُ العَوالي حوالي اللُّبُّ ذو رأيٍ زَميتُ[1]

والأمر عند عاذلة الشنفرى لا يختلف كثيرا عنه عند عاذلة عروة، فهي تدور في الفلك نفسه، فترى حديثها ينصب على خوفها على حياة زوجها، هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر، لكنه لا يلقي بالا لقولها، ولا يقيم وزنا لخوفها، فيقول:

دَعِيني وقُولي بَعْدُ ما شِئْتِ إنَّني سيُغْدَى بِنَعْشي مَرَّةً فأُغَيَّبُ[1]

---

(1) المصدر نفسه، ص 78.أستقله: أي لا أقدر أن أردّه. الملائم: الملامة. العوالي: جمع عالية، وهي أعلى القناة. زميت: حليم وقور. تشتجر: تختلط.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد دأبت العاذلة على الحديث عن خشيتها وخوفها على حياة زوجها، فهي تخشى عليه"لئلا تحرم حمايته، وإعزازه، وعشرته، ولئلا تترمل، ويتيم بنوها ، فهي معذورة في أن تحاول أحيانا في أن تثنيه عن الحروب، وعن الغارات "[2]، لكن هذه العاذلة لم تنجح في هذا الأمر، بل على العكس لم يزد عذلها الصعلوك إلا عزيمة وإصرارا على الاستمرار في نهجه، أو مدخلا لتسويغ منهجه وفلسفته، وبيان شجاعته.

وعاذلة عمرو بن براقه لا تبعد كثيرا عن عاذلتي عروة والشنفرى، فنراها تسير على خطوهما، فهي تخشى على صاحبها الهلاك والموت في إحدى غاراته الكثيرة، لكن حاله حال رفاقه الصعاليك، لا يزيده هذا اللوم والعذل إلا عزيمة وإصرارا وتأكيدا أيضا على استمراره بالغارة على أعدائه ، ولِمَ القعود ما دام جُلّ ماله "أبيض صارم "؟!.

يقول:

تقولُ سُلَيْمى لا تُعرِّضْ لتَلْفَةٍ ... ولَيْلُكَ عن ليلِ الصَّعاليكِ نائمُ

وكيفُ ينامُ الليلَ من جُلّ هَمِّهِ ... حُسَامٌ كلونِ المِلْحِ أبيضُ صَارِمُ[3]

يوظف هنا عمرو بن براقه هذا العذل واللوم بعد هذين البيتين وحتى نهاية قصيدته الميمية[4]، لبيان شجاعته، وشجاعة رفاقة الصعاليك في الغزوات والغارات، ورفضهم للظلم وإصرارهم على انتزاع حقوقهم من يد من اغتصبها، ولا سبيل لذلك إلا بالغارة.

---

(1) الشنفرى، **شعره**، ص 73.

(2) الحوفي، أحمد، **المرأة في الشعر الجاهلي**، القاهرة- مصر، دار الفكر العربي، 1963، ط2، ص 215.

(3) الجبوري، **قصائد جاهلية نادرة**، ص 100. التلفة: الهلاك والموت.

(4) المصدر نفسه، ص 100- 101.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأما عاذلة تأبط شراً، فإنّها ترفض الزواج منه بدءاً؛ لتوقعها قتله بأي لحظة لكثرة غاراته وجنايته، وهذا الرأي لم يكن منها كما جاء في الأغاني[1]، وإنّما ممن أشار عليها من القوم. يقول:

وَقَالُوا لَهَا: لاَ تَنْكِحِيهِ فإنَّهُ ... لأَوَّلِ نَصْلٍ أنْ يُلاَقِيَ مَجْمَعَا

فَلَمْ تَرَ مِنْ رَأْيٍ فَتِيلاً وَحَاذَرَتْ ... تَأَيُّمَهَا مِن لاَبِسِ اللَّيْلِ أرْوَعَا[2]

ويوظف تأبط شراً رفض زواج هذه المرأة منه، ومشورة من أشار عليها؛ ليبين شجاعته وقوته، وطبيعة نهجه الذي انتهجه، ودوافعه للغارة، وعدم مبالاته بما حذروها منه، وهو (الموت) في بقية قصيدته هذه.

وفي صورة أُخرى مختلفة بعض الشيء لعاذلة تأبط شراً، نراها تلومه لوماً شديداً لا رفق فيه، ليس خشيةً عليه من الموت، وإنّما لكثرة إنفاقه المال، طالبة منه كنز هذا المال والإبقاء عليه، فيستنكر عليها لومها، فإن أبقى المال، فإنّ حوادث الدهر لا تبقيه، وكأنّه يقول: الأفضل إنفاقه بما يعود عليّ بالمدح والثناء.

يقول:

يَا مَنْ لِعَذَّالَةٍ، خَذَّالَةٍ، أشِبٍ ... حَرَّقَ بِاللَّوْمِ جِلْدِي أيَّ تَحْرَاقِ

يَقُولُ أهْلَكْتَ مَالاً، لَوْ قَنِعْتَ بِهِ ... مِنْ ثَوْبِ صِدْقٍ، ومِن بَزٍّ وأعْلاَقِ

عَاذِلَتي إنْ بَعضَ اللَّوْمِ مَعْنَفَةٌ ... وَهَلْ مَتَاعٌ وإنْ أبْقَيْتُهُ بَاقِ؟![3]

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 145 .

(2) تأبط شراً، الديوان، ص 112– 113. النصل: السهم. مجمعا: الجماعة المقاتلة. تأيّمها: زواجها

(3) المصدر نفسه، ص 140– 141أشب: المختلط الذي لا يقف عند حد. أعلاق: النفائس.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد كان دور العاذلة في ما تقدم يتمحور حول خشيتها من موته، وفقدانه، وذلك بأن لامته على كثرة غاراته، كما عذلته أيضا على كثرة الإنفاق، فكان من ردّه عليها ما تبيّن من فلسفته في هذا الصدد، فهو"يبحث عن خلوده من خلال حسن الذكر بعد الموت، وهذا بديل عن فناء الإنسان. والى جانب هذا، فالشاعر يستمتع بإنفاق المال في حياته؛ لما يجلب له العطاء من الجاه، والمكانة بين الناس[1].

ونجد أيضا من صور اللوم والعذل غير عذل الصعلوك لكثرة غاراته، وإنفاق المال، لوم الصعلوك لعدم أخذه بالثأر، أو التقاعس عنه، ومن ذلك لوم زوجة الشنفرى له لعدم وفائه بأخذ الثأر لأبيها،بعد أن تعهد له أن يقتل به مئه رجلٍ منهم إن هم قتلوه لنكحه إياها[2]، فيرد عليها الشنفرى، ويؤكد لها أنه لم ينسَ عهده، ولم ينسَ أخذه بالثأر، فيقول لها" فلا يغررك مني تمكثي"أي لا يغرك سكوني، وتمهلي، فإني أُعد نفسي،وسوف أثأر منهم جميعا، من فقيرهم ذي الكساء، ومن غنيهم ذي البرد، ولن أترك أحدا، وسوف أطأ أرضهم، وأقتل شجعانهم وكماتهم، فهم يعرفونني جيدا ويعرفون كبريائي وشجاعتي.

يقول:

كَأَنْ قَدْ فلا يَغْرُرْكِ مِنِّي تَمَكُّثِي سَلَكْتُ طَرِيقًا بَيْنَ يَرْبَعَ فَالسَّرْدِ

وَإِنِّي زَعِيمٌ أَنْ أُلَفَّ عَجَاجَتِي على ذِي كِساءٍ من سَلامانَ أَوْ بُرْدِ

وَأَمْشِي لَدى العَصْداءِ أَبْغِي سَرَاتَهُمْ وأَسْلُكُ خَلاًّ بَيْنَ أَرْقَاغَ والسَّرْدِ

---

(1) السنجلاوي، إبراهيم، **العاذلة في شعر الجاهلي**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت،المجلد 7، العدد 28، 1987، ص 40.

(2) الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 193.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هُـــمُ عَرفـــوني نَاشِـــئاً ذا مَخيلَـــةٍ أُمَـــشِّي خِـــلالَ الـــدّارِ كالأســـدِ الـــوَرْدِ[1]

لقد جعل الشنفرى من ردّه على لوم زوجته مدخلا ليبين لنا بعض صفاته، فهو لا ينسى ثأره وإن طال عهده، ويبين أيضا مدى قوّته وشجاعته، هذه الشجاعة التي تشبه شجاعة الأســد، ويؤكد بأن أعداءه يعرفون هذه الصفه فيه جيدا.

وبعد ما رأينا هذه المواضع الكثيرة التي يتحدث فيها الصعاليك عن لوم زوجـاتهم، أو محبوباتهم لهم، لكثرة غاراتهم، أو إنفاقهم للمال أو غيره، وهذا كله يدلل على خوف هذه العاذلة على زوجها، أو صاحبها لسلوكه سبل المخاطر، ورأينا أيضا كيف نجح الصعاليك في توظيـف عذلهن، ولومهن في التسويغ، والدعوة إلى منهجهم الذي انتهجوه، وبيـان مـا يتمتـع بـه الصعلوك من صفات ساهمت في إصراره على المضي في هذا النهج، كالـشجاعة، والكـرم، والذكاء ورفضه للظلم وغيرها،لكنَّ الغريب في هذا الصدد أن نجد صورة ظريفة ومغايرة لهذه العاذلة، وهو موضع وحيد في شعرهم، وهي صورة العاذلة التي تحث زوجها، وتحرضه علـى الغارة وتأمره بالقيام بها، ولعل تفسير ذلك: هو نجاح الصعلوك في إقناع عاذلته بصحة ما ذهب إليه، وسداد رأيه بعد ما عذلته على ذلك كثيرا، وعلى لسان عاذلته.

يقول عروة:

قالَـتْ تُماضِـرُ إذْ رَأتْ مـالِي خَـوَى وجَفَـا الأقـارِبُ فـالفؤادُ قَـرِيحُ

مـالي رأيْتُـكَ فـي النَّـدِيّ مُنَكِّـساً وَصِـبا كأنَّـك فـي النَّـدِيّ نَطِـيحُ

خاطِرْ بنفسِك كـي تُـصيبَ غَنيمـةً إنَّ القعـودَ مَـعَ العيـالِ قَبـيحُ

---

(1) الشنفرى، شعره، ص 91- 92. يربغ والسرد: موضعان في بلاد الأزد. العصداء: أرض لبني سلامان. خل: طريق ينفد للرمال. الأرفاغ كجبل لبني سلامان.مخيلة: كبر.الورد: الشجاع.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المـــالُ فيـــــه مَهايَـــةٌ وتَجِلَّـــةٌ والفَقَـــر فيـــه مَذَلَّـــةٌ وفُـــضوحُ[1]

فبعد هذا الفقر الذي ألمّ بها وبزوجها، وما ترتب عليه من جفا الأقارب، ومن ذل بين الناس أدركت عاذلة عروة صحة ما حاول جاهدا إقناعها به وصوابه، فالمال يجلب المهابة، والفقر لا يجلب إلا الذل والانكسار.

وعلى الرغم من تفسيري لهذه الحالة الطريفة والغريبة، فإني لا أُنكر أنّ هذا الموقف مناقض للموقف الذي تنهى فيه العاذلة عن الغزوة والغارة، وهذا التناقض كما يرى حسني عبد الجليل "يكشف عن تصدع في البناء النفسي والوجداني للإنسان في العصر الجاهلي من حيث صدور الشيء ونقيضه من منطلق واحد"[2].

وإذا كان للعاذلة دور وتأثير في مسار الصعلوك فيما يتعلق بالغارة، فهي في حالة النهي كانت و بطريقة غير مقصودة تزيده إصراراً على السير في الغارة، كما وتفتح له الباب لتسويغ ما ذهب إليه من تبني نهج الغارة، وكذلك بيان ما يمتلكه من صفات كالشجاعة، والكرم وغيرها، هذا وكان دورها في حالة الحث، والتحريض على الغارة يؤثر في نفس الصعلوك، فيزيده عزما ومضاءً في نهجه.

---

(1) عروة بن الورد، شعره، ص 88.

(2) عبد الجليل، يوسف حسني، **العذل في الشعر الجاهلي**، القاهرة– مصر، مكتبة الآداب ومطبعتها، د.ت، ص 74.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

2. المرأة السبيّة:

لقد كانت المرأة في العصر الجاهلي تمثل شرف الرجل العربي وعرضه، وهي حسب نظرة القبيلة موضع للعار إذا مُست بسوء، من هنا كان يتعين على العربي حمايتها، وصونها خوفا من أن يُمس عرضه، فيلحق به العار ما عاش .

ولقد كان العربي يحاول جاهدا الوصول إلى نساء أعدائه نكاية بهم، وليلحق بهم أشد أنواع الأذى، وكان الصعاليك بهذا شأنهم شأن غيرهم من العرب في العصر الجاهلي، مدركين لحساسية هذا الأمر وأبعاده.

والدارس لشعر الصعاليك فيما يتعلق بموضوع الغارة يلحظ ذكر المرأة في أكثر من صورة ونمط، ومنها المرأة السبية، وهو ذكر سلبي لها في هذه الصورة كما هو معروف، وقد حرص الصعاليك على إظهار المرأة السبية، وهي تعاني أشد أنواع القهر، والإذلال ليفخروا بذلك، فهم بهذا قد ألحقوا بأعدائهم أشد أنواع الهزيمة والألم.

ونجد من ذلك خبر[1] تأبط شرا عندما نزل على رجل من بجيلة، فقتله وسبى امرأته، وأخذ إبله، فنراه عندما فرغ من غارته، أخذ يحدثنا بنشوة عن نتائج تلك الغارة، مسلطا الضوء على صفات سبيته وجمالها، وما صنع معها، وهو كما أظن لا يريد بذلك الحديث عن جمال السبية وصفاتها، وما صنع معها بحد ذاته، وإنما جعل من ذلك مدخلا ليظهر من خلاله مدى العار، والإذلال، والهزيمة التي ألحقها ببجيلة، فهو علاوة على قتل الرجل، وأخذ إبله، وماله أصابه في أعز ما لديه، فسبى زوجته، وصنع معها ما صنع.

يقول:

بِحَلِيلَةِ البَجَلِيِّ بِتُّ مِنْ لَيْلِهَا بَيْنَ الإزَارِ وكَشْحِهَا ثُمَّ الصَّقِ

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 21، ص 150.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بأنيـــسَةٍ طُوِيَـــتْ عَلَـــى مَطْوِيّهَـــا طَـــيّ الحِمَالَـــةِ أو كَطَـــيّ المِنْطَـــقِ

فـــإذَا تَقُـــومُ فَـــصَعْدَةٌ فِـــي رَمْلَـــةٍ لَبِـــدَتْ بِرِيِّـــقٍ دِيمَـــةٍ لَـــمْ تُغْـــدِقِ

وإذَا تَجِـــيءُ تَجِـــيءُ تَـــسْحَبُ خِلْتَهَـــا كَـــالأَيْمِ أصْـــعَدَ فِـــي كَثِيـــبٍ يَرْتَقِـــي[1]

ومن خلال هذه الأبيات، نلحظ كم كان موضوع السبي عند العرب_ ومنهم الصعاليك_ مهما ويشغل في بالهم حيزا، فنحن نلمس من خلال هذه الأبيات أنّ موضوع السبي يُعـدُّ مـن أولويات الغازي وأهدافه، وأحيانا يجعله الغازي عامة، والصعلوك خاصة يتفوق في أهميته عنده على غيره من الأهداف كقتل العدوّ، وأخذ ماله.

وهذا قيس بن الحدادية في معرض فخره بما فعل بأعدائه[2] من سلب ونهب وقتل فإنه، لا ينسى أن يضيف إلى قائمة انتصاراته ما حققه من السبي، فنراه يحدثنا بكل فخر كيف عاد من غارته بعدما فعل بها ما فعل، بسبايا كُنّ بالأمس يُعرفن ببياضهنّ لكنهن اليوم أصبحن سمراً لما لاقين من ذل السبي وقهره، ويؤكد مفتخرا بأنه ينكح ما شاء من نساء القبائل من غير مهر سوى البيض والقنا، ويريد قيس بن الحدادية من حديثه هذا أن يذكي جراح أعدائـه بـسبي نـسائهم، ويظهر مدى شجاعته وجراءته لقيامه بهذا الصنيع. يقول:

غداةَ سَـقَيْنا أرضَـهم مـن دمـائهم وأُبْنَـا بـأُدْمٍ كُـنَّ بـالأمسِ وُضَّـحا

ورُعْنَـا كلابـاً قبـل ذاك بغـارة فـسُقْنا جِـلاداً فـي المبـارِكِ قُرَّحـا

---

(1) **تأبط شراً، الديوان**، ص 145– 146.البجليّ: رجل من بجيلة.حليلة: زوجة البجليّ. الحمالة: حمالة السيف.المنطق: ما يتنطق به على الخصر. الصعدة: القناة، وهنا كناية عن حسن القوام. الديمة كالسحابة. لم تغدق: لم تمطر مطراً غزيراً.ا لأيم: حية بيضاء.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 14، ص 147.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد علمتْ أفناءُ بكرِ بنِ عامرٍ بأنّا نذودُ الكاشحَ المتزحزِحا

وأنّا بلا مَهْرٍ سوى البِيض والقَنا نُصيبُ بأفناءِ القبائلِ منكحا[1]

وأما حاجز الأزدي، فإنّه لا يبعد كثيرا عن رفاقه الصعاليك بأمر السبي، فنراه في صدد ردّه على"عمرو بن معد يكرب"وكان هذا الرجل في إحدى غارات[2] خثعم على بني سلامان قد طعن حاجزاً في فخذه، وفخر بعجز حاجز عن الردّ عليه، والانتقام منه، فأجابه حاجز على ذاك مذكرا إيّاه بموقعة سالفة بينهما، فنرى أول ما يذكّره به في تلك الموقعة هو أخذ السبايا لما في هذا الأمر من إهانة، وذل، وعار لعدوه. وما كان بدء حاجز بذكر السبايا إلا لوقع هذا الأمر الشديد على نفس عدوه.

يقول:

إنْ تذكروا يومَ القُرىّ فإنّه بَواءٌ بأيامٍ كثيرٍ عديدها

فنحن أبحنا بالشخيصةِ واهناً جهارا فجئنا بالنساءِ نَقُودها[3]

ونرى أيضا صخر الغيّ يفخر بسبيه، ويجعل هذا الأمر من مجموعة الصفات الأخلاقية والرجولية التي يحق للرجل بيانها والافتخار بها، وذلك في معرض رده على أبي المُثَلَّم، وكان أبو المُثَلَّم قد نصح، ووعظ صخر الغيَّ بسقطات وقع بها، فيردُّ عليه نافيا كلامه ومثبتا رفعة أخلاقه، ومؤكداً شجاعته، وذاك بذكر أفعاله وفي مقدمتها ما كان من أمر السبي.

---

(1) الضامن، حاتم صالح، **شعراء مقلون**، مكتبة النهضة العربية، بيروت-لبنان، د.ت، ص16.أدم: سبايا.الأدمة: السمرة. وضُحا: بيضاً. جلاد: الإبل غزيرات اللبن أو لا لبن فيها.القرح:جمع قارح، وهي الناقة أول ما تحمل. الأفناء: الأخلاط. الكاشح: الذي يضمر العداوة. المتزحزح: المتباعد.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 13، ص 212.

(3) المصدر نفسه، ص 212– 213. الشخيصة: اسم مكان.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

يقول:

أَبَـــا المُـــتَلَّمِ إِنِّـــي غَيْـــرُ مُهْتَـــضَمِ إِذَا دَعَـــوْتُ تَمِيمـــاً سَـــالَتْ المُـــسَلُ

أَبَـــا المُـــتَلَّمِ أَقْـــصِرْ قَبْـــلَ فَـــاقِرَةٍ إِذَا تُـــصِيبُ سَـــوَاء الأَنْـــفِ تَحْتَفِـــلُ

أَبَـــا المُـــتَلَّمِ قَتْلَـــى أَهْـــلِ ذِي خَبَـــبٍ أَبَـــا المُـــتَلَّمِ والـــسَّبْيَ الَّـــذِي احْتَمَلُـــوا[1]

وتتضح أهمية السبي لدى الشاعر في الأبيات السابقة في الأسلوب اللغوي، فنراه عندما شرع بذكر موضوع السبي كرر أسلوب المخاطبة (أَبَا المُتَلَّمِ)؛ وذلك لأهمية هذا الأمـر لـدى الشاعر، ووجعه في نفس عدوّه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك نساء من نساء الأعداء كان لهنّ شأن مع الصعاليك، لكنهنّ لم يكن من السبايا، فظهرن في شعرهم بعدة حالات، فمنهن من تتمنى قتل الصعلوك؛ لما فعلـه بزوجها وأهلها، ومنهن تأمل التخلص منه؛ لأنّه قد أيّمها ويتّمَ بنيها، ومنهن مـن قـد نكحهـا الصعلوك بغياب زوجها، ومنهن من سعى الصعلوك لأن يبقيها طيلة دهرهـا تـضرب نفـسها بالنعال جزعا على من قُتل لها، وغيرها. وقد أشار إلى هذه المواضع المطيري في "الآخر فـي شعر الصعاليك"[2].

ونستطيع القول: إنّ الشعراء الصعاليك قد وظفوا (السبي) توظيفا بارعاً لبيان شجاعتهم، وجراءتهم، وقدرتهم على النيل من أعدائهم، وعلى ما أعتقد أيضا لإرهاب، وإفزاع غيرهم مـن القبائل، فيخشى بذلك الصعاليك قبل أن يغيروا.

---

(1) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 184- 185. مُهتضم: مُستذل مقصور. تميم: بطن من هذيل. مُسل: أي جائني عدد كبير كالسيل. فاقرة: داهية. تحتفل: تلأخذ معظم الشيء. خبب: اسم موضع.

(2) المطيري، **الآخر في شعر الصعاليك**، ص 57- 59.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

3. المرأة المعرضة:

لقد أطلت علينا المرأة في حديث الغارة في غير صورة ونمط، ومنها كما ذكرت سالفا المرأة العاذلة، والمرأة السبية، وها هي تطل علينا بصورة المرأة المعرضة، وهي المرأة التي تعترض شكل الصعلوك، وترفض منهجه في الحياة، وتأبي نتيجة لذلك وصله ومعاشرته، وهذا الأمر لا يدفع الصعاليك إلى الهيام، والتعلق بهن أكثر كغيرهم من شعراء الغزل، وإنما يدفعهم ذلك إلى الاعتزاز بأنفسهم، وبيان شجاعتهم،وكرمهم، وفروسيتهم، جاعلين من ذلك مدخلا لبيان ما يملكون من هذه الصفات التي تعززت في أنفسهم بسبب ممارستهم للغارة.

ويرى الباحث الصعاليك أحياناً يردّون هذا النقد بنقدهم للرجال الذين فضلتهم تلك النسوة على الصعاليك، مبينين صفات الرجولة وصفات من يجب وصلهم بنظرهم، ومقللين أيضا من شأن من فضل عليهم، وعند العودة إلى شعرهم، ودواوينهم نجد غير موضع يؤكد ما ذكرت آنفا، ومن ذلك أبيات للسليك يقول فيها:

هَزِئَتْ أُمامَةُ أَنْ رأَتْ بِيَ رِقَّةً ... وَفَماً بِهِ فَقَمٌ، وجلْدٌ أَسْوَدُ

أعطِي، إذا السنفسُ الشَّعاعُ تَطَلَّعَتْ ... مالي، وأَطْعَنُ والفرائِصُ تُرعَدُ[1]

فهذه صاحبة السُّليك تنتقد وباستهزاء شكل السُّليك وجسمه، وما به من نحول، وفقم في الفم، وسواد جلده ، وبعد هذا الانتقاد المادي أو الجسدي، ينقلنا السليك نقلا سريعا إلى طبيعته وجوهره، وما يحمل من صفات معنوية ، فبها يقاس الرجال، لا بالشكل والجسد، ونراه يبين

---

(1) السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 66. الرقة: القلّة من كل شيء. الفقم: أن تتقدم الثنايا السفلى،فلا تقع عليها العليا إذا ضم الرجل فاه. تطلّعت: ترقبت. الفرائص: جمع فريصة، وهي لحمة عند نغض الكتف في وسط الجنب عند مقبض القلب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

طبعه الممتاز بالكرم، فهو يعطي حين يحجم غيره عن العطاء خشية الفقر، وأيضا شجاعته، فهو يقدم في الغارات والغزوات عندما يجبن غيره، وترتعد فرائصه خشية الموت.

وأما صاحبة تأبط شرا فإنها تقلل من شأنه، وقوّته أمام النساء، فتصفه "بيفنا حوقلا" أي الشيخ الكبير المدبر عن النساء، لكن تأبط شرا ينكر عليها قولها بذكر ما يتمتع به من قوة، وشجاعة أثناء قيامه بالغارة داحضا بهذا قولها، فهو لم يكن يوما ضعيفا، ولا جبانا، ولم ترتعش أيضا رجليه عندما كان يواجه الحشد الكبير من المقاتلين، بل يثير الغبار لشجاعته وإقدامه، فيكسو سوابق الخيل، فنرى تأبط شرا يوظف نقد صاحبته له لضعفه، وعدم قدرته على معاشرة النساء بذكر ما يتمتع به من شجاعة، وقوة، وإقدام في الغارة، فمن يتمتع بهذه الصفات لا يمكن أن يعجز عن معاشرة النساء.

يقول في ذلك:

تَقُولُ سُلَيْمَى لِجَارَاتِهَا ... أَرَى "ثَابِتاً" "يَفَناً حَوْقَلاَ

لَهَا الوَيْلُ مَا وَجَدَتْ "ثَابِتاً" ... أَلَفَّ اليَدَيْنِ ولاَ زُمَّلاَ

وَلاَ رَعِشَ السَّاقِ عِنْدَ الجِرَاءِ ... إِذَا بَادَرَ الحَمْلَةُ الهَيْضَلاَ

يَفُوتُ الجِيَادَ بِتَقْرِيبِهِ ... وَيَكْسُو هَوَادِيَهَا القَسْطَلاَ[1]

---

(1) تأبط شراً، الديوان ص 162- 163. اليفن: الشيخ الكبير. حوقل: الرجل المدبر عن النساء. ألفّ: الضعيف. الزمّل: الجبان الرذل. رعش: مرتعش،أي جبان.الجراء: العدْو. الحملة الهيضلا: الجيش الكبير يفوت: يسبق. لقسطل: التراب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونرى أيضا صاحبة الشنفرى تنتقده واصفة إيّاه بالضعف والعجز، فيرد عليها نافيا صفة الضعف والعجز بإظهار شجاعته وقوته، وذلك من خلال قدرته على الوثب على الخيل الجموح، ولا يكون الوثب على الخيل الجموح، وإحكام القبض على زمامها إلاّ من رجل شجاع قوي.

يقول:

لا تَحْسَبِيني مِثْلَ مَنْ هُوَ قَاعِدٌ على عُثَّةٍ أو واثِقٌ بِكَسادِ

إذا انْفَلَتَتْ مِنِّي جَوادٌ كَرِيمَةٌ وَثَبْتُ فَلَمْ أُخْطِئْ عِنانَ جَوادِي[1]

وهذه هي أبرز صور المرأة المتعلقة بالغارة، وهناك بعض الصور الأخرى القليلة الذكر في شعرهم، والتي لقلّتها لا يمكن إفراد عنوان لها: كالمرأة المجيرة، فهي لم تذكر إلا في موضع واحد[2] عند السليك بن السلكة، وقد أُشير قبلي لهذا الأمر بشيء من التفصيل في "الآخر في شعر الصعاليك"[3].

إذاً لقد حضرت المرأة المتعلقة بالغارة في شعر الصعاليك على غير صورة ونمط، كان من أبرزها كما ذكرت وفصلت في ذلك، المرأة العاذلة، والمرأة السبية، والمرأة الناقدة. واستطاع الصعاليك من خلال هذه الصور جميعها أن يؤكدوا لهؤلاء النسوة، ومن ورائهن من عُذّال، ونقاد صحة وسداد ما ذهبوا إليه من نهج الغارة، ويروجوا ويدعوا أيضا لهذا النهج، وهذه الفلسفة، ولم يغفلوا أيضا عن إبراز ما يتمتعون به من صفات كالشجاعة، والإقدام، والعزيمة، والكرم وغيرها، فهذه الصفات أهّلتهم للقيام بهذه (الغارة).

---

(1) الشنفرى، **شعره**، ص 93.عُثة: عجوز. عنان: سير اللجام تُمسك به الدابة.

(2)السُّليك بن السّلكة، **الديوان** ص 72.

(3) المطيري، **الآخر في شعر الصعاليك**، ص 53.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني

الغارة وصفات الشاعر

إن القيام بالغارة وممارسة هذا العمل ليس بالأمر السهل؛ لما يحتوي من مشقه بالغة، ومخاطرة بالنفس، وصبر على الخطوب وغيرها، وهذا العمل لابد يحتاج لصفات معينة يصعب توفرها في أي شخص، والصعاليك هم من بين من توفرت فيهم هذه الصفات، وسهلّت طريقهم نحو الغارة، وتعززت وتجذرت لديهم هذه الصفات بممارستهم للغارة.

وقد تحدث الشعراء الصعاليك عن هذه الصفات، وبينوها في شعرهم الخاص بالغارة، تارة بالتصريح، وتارة أُخرى بالتلميح، ولم يُرد الصعاليك من إظهار هذه الصفات إلا أن يؤكدوا لنا أنهم لم يسلكوا سبيل الغارة، وينتهجوا نهجها لا لعبا منهم، ولا لهوا، وإنّما لإثبات أنهم أهل لهذا الأمر، وتأكيدا على مسؤوليتهم تجاه الفقراء المعدمين المظلومين، وأيضا لإثبات فروسيتهم، وشجاعتهم، ودهائهم، وكرمهم لمن خلعهم ونبذهم.

وسأتناول في هذا المبحث صفات الشعراء الصعاليك، وهذه الصفات لطالما افتخروا بها ومن أبرزها: الشجاعة المتجذرة في نفس الصعلوك والمعتمد عليها اعتمادا كليا، فهي لا تفارقه طرفة عين، ولولاها لما تجرأ على ممارسة حرفته في الإغارة على أعدائه وضحاياه، وأيضا صفة الكرم: هذه الصفة التي كان الصعلوك يحاول جاهدا تحقيقها شعورا منه بحال الفقراء المعدمين، ومن أجل تخليد ذكره أثناء حياته وبعد موته، وأيضا صفة القوة والبأس الشديد، والحليلة، والدهاء، اللتين كان ينجو بهما من موت محقق.

1- الشجاعة

لقد اعتز الإنسان العربي قديما بهذه الصفة وافتخر بها، وهي ميزة من ميزات ذلك الإنسان، وكان لهذه الصفة مكانة عظيمة وكبيرة في نفس الإنسان العربي، فغياب نظام حكم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(الدولة)، ووجود العرب في صحراء موحشة ينتشر فيها الظلم والقتل، وغيرها من هذه السلوكات حتّم على هذا الإنسان الاعتماد على نفسه مُتسلحا بشجاعته وقوته الذاتية.

والصعاليك هم من بين هؤلاء العرب ممن اعتمدوا على أنفسهم متسلحين بالشجاعة، وكانت هذه الصفة خير معين لهم في حرفتهم التي احترفوها، ونهجهم الذي انتهجوا (الغارة) ويظهروا اعتزازهم وفخرهم بشجاعتهم، ودورها في تحقيق غايتهم ومرادهم في غير موضع من شعرهم.

وعند الوقوف على صفة الشجاعة لابد من التطرق لأمر هام متعلق بالموضوع، وهو أنّ هذه الشجاعة كانت على أكثر من حال، وأكثر من صورة، فهم من جهة يتحلّون بالشجاعة في مواجهة العدو(مجموعة من المقاتلين)، ومن جهة أُخرى الشجاعة بمقارعة الكماة ومن جهة ثالثة في ما يتعلق بالإقدام لعدم خوفهم من الموت.

ومما ورد في شعرهم بصورة الشجاعة الأُولى العديد من المواضع التي أبرزت هذه الصفة على هذه الصورة ، ومن ذلك خبر[1] أخذ السُّليك لرجل من بني كنانة أسيرا من بين قومه وفي ذلك يقول:

سَمِعتُ بِجَمْعِهِمْ فَرَضَخْتُ فيهِمْ بِنُعمانَ بنِ عُقْبانَ بنِ عَمْرِو[2]

يحدثنا السليك هنا عن سماعه بتجميع أعدائه جموعا كبيرة من المقاتلين، لكن هذا الخبر وهذه المجموعة التي سمع بها لم تفتّ من عزيمته، ولم تُدخل الخوف والفزع إلى قلبه، بل على

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج 20، ص 384.

(2) السُّليك بن السّلكة، الديوان، ص 80. رضخ: كسر النوى أو الرأس. رضختُ فيهم"كسرتُ رأسهم أو شققت صفهم وأضعفت شوكتهم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العكس من ذلك تماما، فنراه ينطلق نحو أعدائه وصوب عينيه شيخهم "نعمان بن عقبان" فيأسره، ويكون بذلك قد كسر رأسهم، وشق صفوفهم، وأضعف شوكتهم.

وأما تأبط شرا، فنراه يفتخر بشجاعته، ويعتز بها في مواجهة الحشود الغفيرة من المقاتلين، ففي معرض ردّه على عاذلته التي تتهمه بالضعف والجبن، نراه ينفي ضعفه وجبنه، وينفي ارتعاش ساقه عند الجِراء، ولا يكون الإرتعاش إلا للرجل الجبان الخائف، فبهذا النفي يؤكد على شجاعته بمواجهة هذه الحشود من غير خوف، ولا وهن يقول في ذلك:

لَهَا الوَيْلُ مَا وَجَدَتْ ثَابِتاً ... أَلَفَّ اليَدَيْنِ ولاَ زُمَّلاَ

وَلاَ رَعِشَ السَّاقِ عِنْدَ الجِرَاءِ ... إِذَا بَادَرَ الحَمْلَةُ الهَيْضَلا[1]

وفي ذلك يقول عمر بن براقه أيضا:

تَحالفَ أقْوامٌ عَليَّ لِيَسْلَمُوا ... وجَرّوا عَليَّ الحَرْبَ إذْ أنا سَالِمُ

متى تجمَعِ القلبَ الذَّكِيَّ وصَارِماً ... وأنْفاً حَمِيّاً تجتنِبْكَ المظَالِمُ[2]

وهنا الأمر يختلف نوعا ما، فعمرو بن براقة في حالة دفاع، فقد تكالب عليه أعداؤه، وأخذوا ماله، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين رغم أنهم جماعه كثيرة، وإنما ردّ ماله معتمدا بذلك على قلبه الشجاع، ومستعينا بسيفه، ونفسه الحرة التي لا تقبل الهزيمة، ولا ترضى بالضيم.

وتظهر شجاعة الصعاليك أيضا بمقارعة المقاتلين ومنازلة الكماة، فهم من خلال هذه المقارعة يظهرون لنا مفتخرين مدى شجاعتهم وقوتهم، فمن يقاتل ويهزم هذا المقاتل الشجاع

---

(1) تأبط شراً، الديوان، ص 193.

(2) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص 100.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القوي لا شك بأنه أقوى منه، فهذا عروة بن الورد يفتخر عندما يطلب منه الإقدام إلى ساحة الوغى لمواجهة هذا النوع من المقاتلين ومقابلتهم.

يقول:

إذا قِيلَ يا ابنَ الوَرْدِ أَقْدِمْ إلى الوغى أَجَبْتُ فلاقاني كَمِيٌّ مُقارِعُ[1]

وأما تأبط شرا، فنراه يجعل مقاتلة هؤلاء الكماة من أكبر همومه بعد أخذه بالثأر، فمقاتلة هؤلاء الكماة طبع عنده وعادة من عاداته، وليس كغيره من المقاتلين، من يقاتل هؤلاء الكماة من أجل أنْ ينسبهم أقوامهم للشجاعة، وأن يذهب ذكرهم بين الناس في هذا المجال.

يقول:

قَليلِ غِرَارِ النَّوْمِ، أكبرُ هَمِّهِ دَمُ الثَّأْرِ، أو يَلْقَى كَمِيّاً مُقَنَّعَا

يُمَاصِعُهُ، كُلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمُهُ وَمَا ضَرْبُهُ هَامَ العِدَى لِيُشَجَّعَا[2]

وهذا الشنفرى يفتخر وهو يحدثنا عن نتائج إحدى غاراته ورفاقه الصعاليك بقتله لفارس كمي، فنراه لأهمية هذا المقاتل الشجاع قد أفرده، وعرفه بالقول بعد ذكره لرجلين بصيغة النكرة، وهذا لبيان شجاعتهم وقوتهم بقتلهم لهذا الصنف من المقاتلين الشجعان المدججين بالسلاح.

يقول:

وقَدْ خَرَّ منهمْ راجلانِ وفارسٌ كَمِيٌّ صَرعناه وقِرْنٌ مُسَلَّبُ[3]

---

(1)عروة بن الورد، **شعره**، ص 83. مقارع: مضارب.

(2) تأبط شراً، **الديوان**، ص 113– 114. يماصعه: يقاتله. هام العدى: رؤوس الأعداء.

(3) الشنفرى، **شعره**، ص 75.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأما ثالث صور الشجاعة: هي شجاعتهم التي تتمثل بعدم خوفهم من الموت، فالموت يهون عندهم في سبيل تحقيق غايتهم وهدفهم، هذه الغاية وهذا الهدف الذي بذلوا أنفسهم في سبيل تحقيقه، ولا يفرط الإنسان في نفسه إلا مَن بلغت الشجاعة من جنانه كل مبلغ، وهذا الأمر لا يخفى على دارس، أو قارئ لشعر الصعاليك، فنراهم يتحدثون عن عدم مبالاتهم بالموت حديث المفتخر بذلك.

يقول الشنفرى:

إذا ما أَتَتني مِيتَتي لَمْ أُبالِها ولم تُذْرِ خالاتِي الدُّموعَ وعَمَّتي[1]

فالشنفرى لا يخشى الموت، ولا يلقي له بالا، ولا يشغل نفسه به كثيرا، فهو يدرك حقيقة الطريق الذي سلكه، فالموت ينتظره في أي لحظة، لا بل حتى أقرب النساء إليه (خالاتي وعمتي) يتوقعن موته بأي لحظة، وإذا ما سمعن بموته فلن يبكين عليه، وهن نساء رقيقات القلب فما بالك بأقاربه من الرجال.

وأما السُّليك فنراه يعلن لرفاقه أنّه سيخوض غمار الموت ويقتحمه، ويدعو لذلك رفاقه، ولا يعلن هذا الإعلان، ولا يدعو له إلا من ملك شجاعة في قلبه عزّ أن تجدها في غيره، فخوض غمار الموت لا يساوي شيئاً عنده مقابل تحقيق مطلبه ومراده.

يقول:

وَاخْبُرِ الفِتيانَ أنِّي خائضٌ غَمْرَةَ المَوْتِ، فَمَنْ شاءَ أقامَا[2]

وهذا عروة بن الورد في معرض رده على عاذلته التي تنهاه عن الغزو خشية عليه من الموت، نراه لا يلقي بالا لتخوفها وخشيتها، فهذا الأمر لا يؤثر فيه، ولا يجزع قلبه له، فهو

(1) المصدر نفسه، ص 83.

(2)السُّليك بن السلكة، الديوان، ص 93. غمرة الموت: شدته وكراهيته.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يدرك تمام الإدراك أنّ سهام الموت لا بد أن تصيبه وغيره، ونتيجة لهذه الحقيقة التي استقرت في نفسه ينطلق في غاراته نحو أعدائه غير آبه بالموت.

يقول:

فإنْ فَازَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ لم أكُنْ جَزُوعاً وهَلْ عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتَأَخِّرِ[1]

أما تأبط شرا فإن فؤاده لا يختلف كثيرا عن أفئدة رفاقه الصعاليك، فالخوف من الموت لا يعرف سبيلا إلى قلبه، فهو يعلم علما لا شك فيه بأنّ الموت وإن طال لابد سيصيبه وسيلاقيه، فلذلك إن أتى موعد الغارة، وموعد لقاء أعدائه، فإنّه لا ينظر خلفه، ولا يتردد في الإقدام ما دام أنّ الموت قد هان عنده؛ لإيمانه بحتمية وقوعه في يوم من الأيام.

يقول:

وإنّي وَلاَ عِلْمٌ لأَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَلْقَى سِنَانَ المَوْتِ يَبْرُقُ أَصْلَعَا[2]

وبعد دراستنا لمواضع الشجاعة في شعرهم، نلحظ كم كانت هذه الصفة متأصلة في نفوسهم، فهي أمر ثابت ومسلم به، لا يمكن إنكاره بأي حال من الأحوال، استخدمه الصعاليك سلاحا آخراً فضلاً عن السلاح المعروف، وكان خير معين لهم في صولاتهم وجولاتهم.

2- الكرم

لقد حاول الصعاليك جاهدين تحقيق هذه الصفة وتعزيزها في نفوسهم، وبذلوا من أجل ذلك أرواحهم وأوقاتهم، وكانت دافعا رئيسيا من دوافع الغارة عندهم، كما ذكرت في الفصل الأول من دراستي هذه ، وأرادوا من ذلك سد حاجة الفقراء المعدمين وعوزهم، وتخليصهم من معاناة عاشها الصعاليك أنفسهم، وهم بذلك أيضا يخلدون أسماءهم وذكرهم في سجل الكرماء.

---

(1) عروة بن الورد، شعره، ص 43.

(2) تأبط شراً، الديوان، ص 118.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد دأب الصعاليك على إظهار وبيان فخرهم واعتزازهم بهذه الصفة، فهم أهل للكـــرم على الرغم من فقرهم وحاجتهم، وقد نافسوا ونازعوا بجودهم وكرمهم الكرماء الذين يعيـــشون بفسحة، من المال، وأحرجوا أرباب المال الذين ضنوا بمالهم على الفقراء المـــساكين، ويظهـــر فخرهم بهذه الصفة جليا في شعرهم.

يقول حاجز:

سَـــلي عنّـــي إذا اغبـــرَّتْ جمـــادى وكـــــان طعـــــام ضـــــيفِهِم الثمامـــــا

ألـــسنا عِـــصمةَ الأضْـــيافِ حتّـــى يُـــضَحَّى مـــــالُهم نَفَـــــلاً توامـــــا[1]

يبين حاجز الأزدي مفتخرا تأصل صفة الكرم فيه، فهو ينفق ويكرم ضيفه فـــي الوقـــت الذي يقلُّ فية الخير والطعام عند الناس، فيوم يطعم الناس أضيافهم الثمام لقلة الطعام، يلجأُ إليـــه الأضياف لكرمه، فيضحي بماله هبة منه وعطية، فهذا حاله إذا ما شح الخير والطعام، فما بالك به إذا ما زاد الخير والطعام.

وأما تأبط شرا في معرض رثائه لرفيقه الشنفرى لا ينسى صفة الكرم، التي شبّ وشاب، عليها ومن أجلها، فخير الشنفرى مبسوط لمن احتاجه من الفقراء، لا يمنعهم عنه مانع، وطعامه وزاده حاضر لمن طرق باب من الأضياف.

يقول:

وحَتَّى رَمَاكَ الشَّيْبُ في الرَّأسِ عَانِساً وَخَيْـــرُكَ مَبْـــسُوطٌ ، وَزَادُكَ حَاضِـــرُ[2]

---

(1) الأصفهاني **الأغاني**، ج 13، ص 210. اغبرت جمادى: قل الخير والزاد، الثماما: النبت الضعيف، نفلاً: هبة وعطية.

(2) تأبط شراً، **الديوان**، ص 84.العانس: يجوز أن يكون بمعنى من خالط البياض من الشيب السواد في رأسه، ويجوز أن يكون بمعنى من اكتمل سنه ولم يهدّه الكبر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأمّا عروة الصعاليك فنراه في صدد ردّه على عاذلته التي تلومه لكثرة غاراته يبين لها إحدى أهم الثمار التي يجنيها في الغارة، وهي عطاؤه وكرمه على الفقراء مما يجنيه في تلك الغارات، وهو الذي يسعى إلي عروة من أجل تخليد ذكره بعد مفارقته الحياة، يقول:

أحاديثَ تَبْقى والفتى غَيْرُ خالدِ إذا هُوَ أمْسَى هامةً فَوْقَ صَيِّرِ[1]

وهذا السُّليك لا يبعد كثيرا عن رفاقه بحديثهم وفخرهم فيما يخص موضوع الكرم، فنراه يضم صوته إلى صوتهم مفتخرا ومظهرا هذه الصفة لديه، فهو يكرم ضيفه، ويحسن ضيافته، إذا ما خاف الناس من ظهور الضيف لقلة المال لديهم وشحه، يقول:

أُعطِي، إذا النفسُ الشُّعاعُ تَطَلَّعَتْ مالي، وأَطعَنُ والفرائصُ تُرعَدُ[2]

إذاً لقد عاينّا صفة الكرم عند الصعاليك التي كانت في كثير من الأحيان تقترن بالضيافة كإحدى أهم صور الكرم ، هذا ونستنتج من دراستنا هذه في باب الكرم أن هذه الصفة كانت ذات حضور قوي عندهم، الأمر الذي يدلنا على أنّ الكرم كان متأصلا عند الصعاليك، كما هو حال الكثير من العرب غيرهم " فلم تتوقف فضيلة الكرم والضيافة عند باب الصعلكة، بل تجاوزت وتبوأت فيها مقامها المرموق، فمارس الصعالكة الضيافة، وفخروا بها، تماما كما مارس الكرام الصعلكة"[3].

3- القوة والبأس:

لقد تحدثت فيما سبق عن صفتين من صفات الصعاليك التي عرفوا بهما، وامتازوا بهما بشكل لا غرو فيه ، وكما أن الصعاليك كانت لديهم هذه الصفات، فقد كان لديهم غيرها، ومن

---

(1) عروة بن الورد، **شعره**، ص 42، صير: القبر.

(2) السُّليك بن السلكة، **الديوان**، ص 66، الشعاع: الاضطراب، تطلعت: ترقبت.

(3) المصدر نفسه، ص 21.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذلك أنهم كانوا على قدر كبير من القوة والبأس، حيث عرف عنهم بأنهم مقاتلون أكفاء، فلا يكاد الصعاليك يذكرون حتى يتبادر إلى الأذهان تميزهم في القتال، كيف لا وفي هذا المضمار صنعتهم التي مارسوها، وبها برزوا.

ومن المعروف بدءاً أنّ الصعاليك امتازوا بالقوة والبأس الشديد قبل أن يحترفوا الصعلكة، وإنما نستدل على ذلك بطرد قبائلهم لهم لكثرة جرائرهم، ومن البديهي كثرة جرائرهم تنم عن قوة وطاقه كان يتمتع بها هؤلاء أهلتهم للقيام بهذه الجرائر ناهيك عن أن بعضهم كانوا عبيدا كالسُّليك، ومما عرف عن العبد غالبا ما يتمتع به من جلد وقوة؛ وذلك لطبيعة الظروف التي كانوا يعيشونها.

وقد افتخر الصعاليك بقوتهم وبأسهم الشديد، وكيف لا يفتخرون بهذه الصفة وهم بفضلها حققوا انتصاراتهم، وألحقوا بأعدائهم شر الهزائم؟ فتحدثوا عن هذه الصفة في غير موضع في شعرهم.

يقول قيس بن الحدادية:

قرعنا قُشَيراً في المحلِّ عشيَّةً ... فلم يجدوا في واسعِ الأرضِ مَسرَحا

وأُبنا بإبلِ القَومِ تُحدى ونسوةٍ ... يبكِّين شِلْواً أو أسيراً مُجرَّحا

غداةَ سَقَيْنا أرضهم من دمائهم ... وأُبْنا بأُدْمٍ كُنَّ بالأمسِ وُضَّحا

ورُعْنا كلاباً قبل ذاك بغارة ... فسُقْنا جِلاداً في المباركِ قُرَّحا[1]

---

(1) الضامن، شعراء مقلون، ص 15– 16، قشير وكلاب: أسماء قبائل، تحدى: تساق، الشلو: كل مصلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يظهر لنا قيس بن الحدادية مدى قوته وبأسه ورفاقه الصعاليك، وذلك بشنهم هجومين على قبيلتين، وكيف قاتلوهم بشراسة، مما اضطر القوم أن ينهزموا أمامهم، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت ، وكيف ساق الصعاليك، إبلهم وتركوا نساءهم يبكين على من قُتل، وجرح، وأسر من قومهن ، وقد سقى الصعاليك أرض أعدائهم بالدماء؛ لكثرة ما قتلوا وجرحوا منهم، هذا غير الرعب الذي قذفوه في قلوبهم، والنساء اللواتي سُبين، وما صنح الصعاليك هذا الصنيع من نهب، وقتل، وأسر، وسبي على قِلّتهم وكثرة أعدائهم إلا بفضل ما أُوتوا من قوة وبأس شديد.

وهذا تأبط شرا يردُّ على نساء أعدائه، هؤلاء النسوة اللواتي طالما تمنين قتله أو أسره؛ لما جرعهنّ من مرارة بما عرف عنه من بأس وقوة، فيخبر تأبط شرا هؤلاء النسوة اللواتي ينتظرن خبر أسره أو مقتله بأن من أو صيتموهم باتباعي، وقتلي أصبحوا بفضل ما أتمتع به من قوة وبأس شديد في القتال بين هارب فار وبين قتيل مسفوك الدماء، يقول:

تُرَجِّي نِسَاءُ الأَزْدِ طَلْعَةَ "ثابِتٍ" أَسِيراً، وَلَمْ يَدْرِينَ كَيْفَ حَوِيلِي

فَإِنَّ الأُلَى أَوْصَيْتُمُ بَيْنَ هَارِبٍ طَرِيدٍ وَمَسْفُوحِ الدِّمَاءِ قَتِيلِ[1]

وأما عمرو ذو الكلب فنراه يهدد، ويتوعد أعداءه أن هو ثقفهم بما يتسلح به من قوة وبأس في القتال شديد، يقول:

فَعَنْ أُثْقِفَنْتُمُونِي قَافْتُلُونِي وَإِنْ أَثْقَفْ فَسَوْفَ تَرَوْنَ بَالِي[2]

---

(1) تأبط شراً، **الديوان**، ص 186- 187. الحويل: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف.

(2) السكري، **شرح أشعار الهذليين**، ص 58.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونرى الأعلم الهذليّ يتحدث بكل ثقة لأعدائه بأنهم متى يواجهوه يواجهوا الموت المُحتّم، متسلحا بما أُوتي من قوة وبأس في مقارعة الأعداء ومضاربتهم، فهو بذلك شأنه شأن غيره من رفاقه الصعاليك لا يتخلف في ذلك المضمار، يقول:

مَتَــى مَــا تَلْقَنِــي وَمَعَــي سِــلاَحِي تُــلاَقِ المَــوْتَ لَــيْسَ لَــهُ عَــدِيلُ[1]

لقد كان البأس والقوة من الصفات المتأصلة لديهم، والصفات ذات الميزة، فلا نبــالغ إذا قلنا بأن لفظ الصعلوك بحد ذاته فيه من الإيماء والإشارة إلى هذه الصفة، بيها عُرفــوا، وبهــا أفلحوا في غاراتهم ومقارعة أعدائهم.

4- الحيلة والخداع

لقد اعتمد الصعاليك على الحيلة والخداع في غاراتهم على أعدائهم أيما اعتمــاد، فكــان لهذا الأسلوب الأثر الكبير على نتائج تلك الغارات، وحسمها لصالحهم، والعــودة منهــا بأقــل الخسائر لا بل قل بدون خسائر غالبا، ولعل السبب في اعتمادهم على هذا الأسـلوب هــو قلــة عددهم مقارنة بعدد أعدائهم، فهو يعد أنجع خيار لديهم في مثل هذه المواجهات، إن كــان فــي الهجوم المباشر أم في الانسحاب، وهو في كلتا الحالتين يسجل لهم ذكاء وبراعة وحسن تدبير في هذا المجال.

وهذه صفة واضحة عند الصعاليك إلى جانب غيرها من الصفات التي ذكــرت، وهــي صفة اكتسبها الصعاليك اكتسابا من جراء المواقف التي تعرضوا لها في غــاراتهم وغــزواتهم، ولعل هذا هو الفرق بينها وبين باقي الصفات التي اكتسبوها بالفطرة، وتعززت لديهم بممارستهم للغارة، وأصبحت مع مرور الزمن صفة متجذرة واضحة لديهم.

---

(1) المصدر نفسه، ص 218.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولقد افتخر الصعاليك بهذه الصفة، وأظهروا هذه الميزة المكتسبة في شعرهم، ولم يشعروا بأي خجل لا سيما في حديثهم عن الانسحاب والهروب، لأنّ هذا الانسحاب أو الهروب لم يكن بدافع الخوف أو الجبن، وإنما يعتبر ذلك"سلاحا من أسلحتهم، يضمن لهم النجاة، ليعيدوا الكرة من جديد"[1].

ومن فخرهم بهذه الصفة خبر[2] السُّليك وصاحبين له، عندما أشرفوا على جوف مراد، وإذا به نُعَمْ قد ملأ المكان لكثرته، فطلب السُّليك من صاحبيه أن ينتظراه ريثما يأتي بخبر القوم قريبون هم أم بعيدون، فإن كانوا قريبين رجع إليهما، وإن كانوا بعيدين أومى إليهما بكلام يفهمانه فيغيران، وظل السُّليك يستلطق الرعاة حتى أخبروه بمكان القوم، وإذا هم بعيد، ويبدأ السليك بعد ذلك باستخدام الحيلة والخداع طالبا من الرعاة أن يُغنّي لهم، وفي ذلك إيماء لصاحبيه كي يبدأ بالهجوم. يقول لهم في غنائه:

يا صاحِبَيَّ، ألاَ لا حَيَّ بالوادي إلاّ عَبيداً قِياماً بَيْنَ أذْوادِ

أتَنْظُرانِ قَليلاً، رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ؟ أم تَغْدُوانِ، فإنَّ الرِيحَ للغادي[3]

وأما الشنفرى، فإنه يتربص بأعدائه مستخدما الحيلة والخداع، وذلك بصعوده على مرقبة عالية ليلا، فيبيت عليها حَدَّ ذراعيه منطويا على نفسه، كما ينطوي الأرقم الذي يَهمُّ بالهجوم على فريسته، وهو بذلك يخدع ضحيته بمباغتته بالهجوم، يقول:

---

(1) خليف، **الشعراء الصعاليك في الصر الجاهلي**، ص 211.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج 20، ص 376.

(3) السُّليك بن السلكة، **الديوان**، ص 68، أذواد: جمع ذود وهو القطيع من الإبل، تغدوان: تباكران القوم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نَعَبْتُ إِلـى أَعْلـى ذُراهـا وَقَـد دَنَـا مِـن اللَّيـلِ مُلْتَـفُّ الحَدِيقَـةِ أَسْـدَفُ

فَبِـتُّ علـى حَـدِّ الـذِّراعَيْنِ مُجْـذِياً كمـا يَتَطَـوَّى الأَرْقَـمُ المُتَعَطِّـفُ[1]

وهذا عمرو ذو الكلب يخدع أعدائه بعدما ظنوا أنهم عليه قادرون وأنهم من قتله قـاب قوسين أو أدنى، فهم لا يعلمون ما أعدّ لهم من حيلة، فهو يخبئ قوسه في بـاطن شـماله كـي يباغتهم به لحظة الهجوم، يقول:

يَـسْلُونَ الـسُّيُوفَ لِيَقْتُلُـونِي وَقَـدْ أَبْطَنْـتُ مُحْنَلَـةً شِـمَالِي[2]

ويستخدم تأبط شرا براعته وذكاءه أيضا بالحيلة والخداع، فقد كمن له ثلاثة من الأزد[3] فأهملو له إبلا فأخذها، وفي الطريق جلس يستريح، فهيأ له مضجعا على النا، ثم أخمدها وزحف على بطنه، حتى دخل بين الإبل، فلما أحسوا نومه أقبلوا ثلاثتهم نحو المهاد الذي رأوه هيأه، وإذا به يقتل احدهم، ففر الآخران، ثم عمد إلى أحدهم فقتله أيضا، فنراه قد أفلت منهم بفضل حيلتـه، ويقول مفتخرا بذلك:

وَخَدْتُ بِهِمْ، حَتَّـى إِذَا طَـالَ وَخْـدُهُم وَرَابَ علـيهِم مَـضْجَعِي وَمَقِيلِـي

مَهَدْتُ لَهُمْ، حَتَّـى إِذَا طَـالَ رَوْعُهُـم إِلـى المهـد ، خَاتَلْـتُ الـضَّيا بِخَتِيـلِ

فَلَمَّا أَحَـسُّوا النَّـوْمَ جَـاءوا كَـأَنَّهُمْ سِـبَاعٌ أَضَـافَتْ هَجْمَـةً بِـسَلِيلِ[4]

---

(1)الشنفرى، شعره، ص 101، نعبت: صعدت، الحديقة: الشجر الكثيف، اسدف: مظلم، مجذيا: غير مطمإن، يتطوى: ينطوي، الأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها، المتعطف: الملتف بعضه حول بعض.

(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 60، محدلة: القوس.

(3) الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 153.

(4) تأبط شراً، الديوان، ص 187- 188، الوخد: السير السريع، راب: الأمر المشكوك فيه، خاتلت: من الختل وهو الخداع، أضافت: أخافت، الهجمة: القطعة من الأبل بين الأربعين والمائة، السيلي وسط الوادي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد حاول الصعاليك من خلال إظهار هذه الصفات التأكيد على صحة وصواب ما ذهبوا إليه من أمر الغارة، فهم لم ينهجوا هذا النهج حبا بالسلب،والنهب، والسبي، وإراقة الدماء، وإنما للشعور الإنساني الذي كان يختلج في نفوسهم نحو الفقراء المعدمين، ورفضا للظلم والتمييز الذي كان يقع من مجتمعاتهم عليهم وعلى من هو في مثل حالهم.

إنّ هذه الصفات التي ذكرت، لتُعدُّ الأبرز في صفاتهم، التي أسهمت بصياغة هذه الحياة على هذا الشكل الذي عرفناه عنهم من خلال هذه الدراسة، ولولا وجوده هذه الصفات لديهم اما سلكوا هذا النهج أو استمروا به.

ولقد رأينا كم ألحّ الصعاليك على إثبات سداد رأيهم في سلوك سبيل الغارة، هذه الغارة التي وهبوا لتحقيق أهدافها جلّ حياتهم، وقابلوا ما بها من مخاطر ومشقة بصبر وجلد، وفقدوا أرواحهم من أجلها، فأصرّوا على إظهار ما يتمتعون به من صفات سواءً من خلال صور وأنماط المرأة أو من الحديث المباشر وغير المباشر من هذه الصفات التي تثبت ما يحملون في نفوسهم من هموم إنسانية وقيم أخلاقية، حاولوا من خلالها أن يمحوا خطايا مجتمعهم الطبقية واللاانسانية كما يعتقدون.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمة:

أهم ما توصل إليه الباحث من دراسته "الغارة في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي" ما يأتي:

1. لم يمارس الصعاليك الغارة بالمقام الأول بدافع السلب والنهب والقتل وما شابه ذلك،وإنما بدافع الفقر والجوع،والكرم، والثأر.
2. عمد الصعاليك في غاراتهم _كما وصفوها_ إلى عدة أساليب لإنجاحها، وكان أبرزها الشجاعة، والقوة، والبأس، والحيلة، والخداع.
3. لم ينظر الصعاليك لموضوع الفرار على أنه من قبيل الجبن والخور، وإنما اعتبروا ذالك من قبيل الفطنة، والذكاء، والمراوغة.
4. أظهر الشعراء الصعاليك السيف والسهم في شعرهم بشكل أكبر من غيرهما من الأدوات، وذلك لما لاستخدام السيف من إظهار للشجاعة عن طريق المواجهة المباشرة، وما للسهم من إظهار الحنكة عن طريق المبادرة.
5. غلب على شعر الصعاليك الأساليب البلاغية البسيطة، والتي تأتي على الفطرة والسليقة، وابتعدوا عمّا يحتاج للصنعة والتكلف والتأني.
6. غلب على شعر الصعاليك الإيجاز وأقصد بذلك الإيجاز على مستوى القصيدة ككل، حيث عبروا عن أحداث كبيرة ومعاني مهمة بأبيات قليلة.
7. جاء ذكر المرأة الخاص بالغارة ذكراً سلبياً في كثير من المواضع كما هو الحال عند عروة والسُّليك.
8. لم يوفق الصعاليك في إقناع أقرب النساء إليهم بما ذهبوا إليه من نهج الغارة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

9. ألحَّ الشعراء الصعاليك على إظهار ما يتمتعون به من صفات في جميع ثنايا شـــعرهم المتعلق بالغارة سواء في وصفهم للغارة أو لأدواتها أو حديثهم عن المرأة وغير ذلك.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المصادر والمراجع:

- الأصفهاني أبو الفرج، علي بن الحسين، **الأغاني**، تحقيق: علي النجدي ناصف، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، د.ت.

- الجبوري، يحيى، **قصائد جاهلية نادرة**، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، 1982.

جمعة، حسين، **الحيوان في الشعر الجاهلي**، مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، دمشق- سوريا، 2010.

- حفني، عبد الحليم، **شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.

- حمادة، الهام، 2008، **الصورة الفنية في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2008م.

- الحوفي، أحمد، **المرأة في الشعر الجاهلي**، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر، 1963م.

- خلف، عبد الله، **الشعر ديوان العرب: الشعراء الصعاليك**: دراسة تحليلية نفسية، الإسكندرية، 1980.

- خليف، يوسف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، 1978.

- ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، 1965.

- السكري، أبو سعيد الحسني بن الحسين، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العالمية، بيروت- لبنان، 2006.

- السكيت، يعقوب بن إسحاق، **شعر عروة بن الورد العبسي**، تحقيق محمد فؤاد نعناع، مكتبة ومطبعة الخانجي، القاهرة، 1995.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- السنجلاوي، إبراهيم، العاذلة في الشعر الجاهلي، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، المجلة 7، عدد 28، الكويت، 1987م.

- شاكر، علي ذو الفقار، **ديوان تأبط شرا وأخباره**، دار المغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1984.

- شلبي، سعد إسماعيل، **الأصول الفنية للشعر الجاهلي**، مكتبة غريب، القاهرة- مصر، 1977م.

- الضامن، حاتم صالح، **شعراء مقلون**، مكتبة النهضة العربية، بيروت- لبنان، د.ت.

- الضناوي، سعد، **ديوان السليك بن السلكة**، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994.

- عبد الجليل، يوسف حسني، **العذل في الشعر الجاهلي**، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة- مصر، د.ت.

- عبيد، أحمد محمد، **شعر الشنفرى الأزدي**، تحقيق ودراسة: المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000.

- أبو العدوس، يوسف، **المجاز المرسل والكناية**، عمان- الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، 1998م.

- أبو العدوس، يوسف، **مدخل إلى البلاغة العربية**، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 2007.

- عصفور، جابر، **الصورة الفنية في التراث النثري والبلاغي**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974.

- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، بيروت، دار الجيل، (د.ت).

- القيسي، نوري حمودي، **الفروسية في الشعر الجاهلي**، مكتبة الفرس، د.ت.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- مطلوب، أحمد، **أساليب بلاغية**، الكويت، وكالة المطبوعات، 1980م.

- المطيري، خالد منصور، **الآخر في شعر الصعاليك**، رسالة ماجستير، كليـــة الآداب، جامعـــة اليرموك، الأردن، 2008.

- ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت- لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1993، جـــ10.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Abstract

Omari, Murad Muhammad. Raid in hair Tramps in pre-Islamic era .study of form and content, a supervision. Dr. Amal Tahir Naseer

This study consists of an introduction and three chapters and a conclusion, the researcher presented the study objectives and the approach taken by; to achieve these goals, and previous studies that reported them, as he talked about the classes and divisions .

In the first chapter dealt with the importance of the raid and its motives, describing the tools described in three sections: the first and second is motivated raid described the raid and the third describes the raid tools .

In the second chapter dealt with the formation of the raid and rhetorical tools, which stood on the main rhetorical features that make them raid your hair and tools, and I have to say that rhetorical methods and explained why I said it .

In the third chapter talked about the raid, and other topics of the poem and made in two sections: the first raid and women and the second raid recipe poet .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Then I finished the study conclusion knew where the most important findings, and a list of sources and references, and a summary in Arabic and English .

Key words: the raid and tramps

© Arabic Digital Library-Yarmouk University